اللـــؤلـــؤة

جون شتاينبك

- Author : John Steinbeck
- Title: The Pearl ...
- Translated by: Mahmoud Hosni
- Afaq's first edition: 2017
- Cover Design by: Amr El Kafrawy

- المؤلف: جون شتاينبك
- العنوان: اللؤلؤة
- ترجمة: محمود حسني
- طبعة آفاق الأولى 2017
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

رقم الإيداع:
١٤٤٩٨ / ٢٠١٦
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977 - 765 - 056 - 4

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form، or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

جون شتاينبك

اللـــؤلـــؤة

رواية

ترجمة

محمود حسني

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

شتاينبك، جون.

جون شتاينبك : اللؤلؤة

جون شتاينبك – ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2017

120 ص، 20 سم.

رقم الإيداع 14498 / 2016

الترقيم الدولي 978 – 977 – 765 – 056 – 4

1 – الأدباء

2 – شتاينبك، جون

عن الكاتب

وُلِدَ جون شتاينبك عام ١٩٠٢ في سالیناس، كاليفورنيا. درس مادة الأحياء البحرية في جامعة ستانفورد عام ١٩١٩، لكنه لم يُكملْ دراسته على الرغم مِن تفوقه فيها، فترك الجامعة وهرب على بخارة بضائع إلى سان فرانسيسكو، ثم إلى حقول الشعير والبنجر في إحدى المزارع، وبدأ مِن هناك، في كوخٍ بسيطٍ بين الحقول، مسيرتَهُ مع الكتابة.

عاد بعد ذلك بعامينِ إلى الجامعة، ولكنَّهُ غيّر دراسته إلى اللغة والصحافة، فأتاح له ذلك الاستمرار في كتابة القصص والقصائد. ولكنْ هذه المرة أيضًا ومع تفوقه في دراسته، إلاَّ أنَّه ترك الجامعة قبل أن يحصل على شهادته.

نُشرت أولى رواياته «كأسٌ مِن ذهبٍ» عام ١٩٢٩ باسمه الحقيقي، بعد أن نشر بعض قصصه القصيرة باسم جون شتيرن. في العام التالي، تزوَّج مِن فتاة تُدعى كارول هيننج، كانت تعمل سكرتيرة على الآلة الكاتبة، ومراجعة النصوص في كاليفورنيا، وكانا يذهبانِ في رحلات للصيد معًا في

خليج الباسيفيك؛ ليوفِّرا ما يكمل لهما طعامهما. وفي عام ١٩٣٢ صدرتْ روايتُهُ «مراعي الفردوس». وكانت هذه الرواية هي بداية نضجه الفكري والفني، مع هذا لم تُحقق الاستقرار المادي الذي كان يحتاجه مِن أجل أن يستمر في مهنة التأليف التي أراد أن يتفرغ لها كُليًّا. وفي عام ١٩٣٧ صدرتْ روايتُهُ «فئرانٌ ورجالٌ» والتي حوَّلها الكاتب المسرحي جورج كوفما إلى مسرحيةٍ، عُرضت في العام نفْسه في برودواي، وفازتْ بجائزة الدراما. وفي العام التالي، أصدر أشهر أعماله رواية «عناقيد الغضب»، والتي تدور حول العمَّال المهاجرين في كاليفورنيا، وقد أحدثتْ هذه الرواية ضجَّةً هائلةً في الأوساط الإعلامية والأدبية، وفازتْ بجائزة بوليتزر عام ١٩٤٠، ومُنِحَ جون شتاينبك حينها عضوية المعهد القومي للفنون والآداب.

وفي عام ١٩٤٧ كتب نوفيلا «اللؤلؤة». ثُمَّ «شرق عدن» عام ١٩٥٢. وكان شتاينبك قد نصح الرئيس الأمريكي ليندون جونسون بسحب قوّاتِهِ مِن فيتنام بعد أن قام بزيارةٍ صحفيةٍ لها. وفي عام ١٩٦٢ حصل على جائزة نوبل، ومِن ثَمَّ نال ميدالية الحرية الأمريكية عام ١٩٦٤. وأُصيب شتاينبك بأزمةٍ قلبيةٍ في ديسمبر ١٩٦٨، أودتْ بحياتِهِ في شقته بنيويورك، ليرحل عن ستةٍ وستينَ عامًا.

في البلدة، يحكون قصة لؤلؤة عظيمة - كيف وُجِدَتْ،
وكيف فُقِدَتْ بعد ذلك. يحكون عن كينو، الصيَّاد، وعن زوجته، جوانا،
وعن رضيعهم، كويوتيتو. ولأنَّ القصة حُكيتْ مرارًا وتكرارًا،
فقد أصبحت جزءًا مِن ذاكرة كلِّ مَن سمعها.

(١)

حين استيقظ كينو كانت العتمة لا تزال تملأ السماء. لا تزال النجوم تلمع، والنهار يحاول أن يرسم ضوءًا شاحبًا في الأفق ناحية الشرق، حيث السماء تبدو قريبةً، تكاد تُلامس الأرض. صاحت الدِّيكة أكثر مِن مَرَّةٍ، وبدأت الخنازير في حركتها اللانهائية، تعضّ الأخشاب في محاولةٍ منها للبحث عن أيِّ شيءٍ؛ لتأكله. خارج المنزل الدغلي القائم بين الأجمة، كان سربٌ مِن الطيور الصغيرة يغرّد ويرفرف بأجنحته.

أول ما نظر إليه كينو حين فتح عينيه كان المربع الذي يتسلَّلُ منه الضوء، حيث باب المنزل المفتوح على الدغل، ثم ألقى نظرةً على صندوق الرضيع المعلّق حيث ينام كويوتيتو، وفي النهاية أدار رأسه لجوانا، زوجته، والتي كانت ترقد جواره على الحصيرة، بشالها الأزرق الملتف حول أنفها وعلى ثدييها وحول مؤخرتها الصغيرة. كانت عينا جوانا مفتوحتين أيضًا. لا يستطيع كينو أن يتذكر أنه قد رآهما مغلقتينِ أبدًا

عند استيقاظه في أيِّ يومٍ مِن الأيّام. عيناها الداكنتان عكستا شيئًا مِن ضوء النجوم. كانت تنظر إليه كما اعتادت أن تنظر إليه كلَّ يومٍ عند استيقاظه.

سمع كينو أصواتًا خافتةً آتيةً مِن الشاطئ، إنها أمواج الصباح. بدا الصباح جيدًا للغاية. أغلق كينو عينيه، وبدأ في الاستماع إلى الموسيقى الخاصة به، والتي تعزف إيقاعها في أذنيه، داخله. ربما كان الوحيد الذي يفعل ذلك الأمر، وربما كان كل قومه يفعلون الشيء نفسه. قومه الذين كان لديهم، يومًا ما، مُؤلِّفو أغانٍ عظماء. حيث كان كل شيء يرونه ويُفكرون به أو يفعلونه أو يسمعونه يصبحُ أغنيةً. كان هذا الأمر قد مضى عليه وقتٌ طويلٌ. بقيت الأغاني. وكان كينو يعرفها جيدًا. ولكن ليس هناك أغانٍ جديدةٌ قد أُضيفت. لم يكن هذا يعني أنه ليس هناك أغانٍ شخصيةٌ. في رأس كينو، الآن، كانت هناك أغنيةٌ تصدحُ، واضحة وناعمة، ولو كان في إمكانه أن يتحدث عنها، كان ليسميها «أُغنية الأُسْرة».

دائمًا ما وضع كينو دِثارَهُ فوق أنفه؛ ليحميَهُ مِن الهواء شديد الرطوبة في هذه الساعة مِن الصباح. لمحتْ عيناه حفيف ثوبٍ جوارَهُ. كانت هذه جوانا، تنهض، دون أن تُحدث صوتًا تقريبًا، على قدميها الحافيتينِ القويتينِ، ذاهبة إلى الصندوق المعلَّق حيث ينام كويوتيتو، مائلة عليه، متمتمة بقليلٍ مِن الكلمات المـُطمئِنة. نظر كويتيتو إليها لوهلة، ثم أغلق عينيه، ونام مِن جديدٍ.

توجَّهتْ جوانا إلى حيث حفرة الموقد. كشفتْ عن الفحم، وعملتْ على إشعاله، بثَّتْ فيه الحياة مِن جديدٍ، وهي تُكسِّر الأغصان إلى قطعٍ صغيرةٍ، وتضعها فوقه، لتُزكّيه.

في ذلك الوقت، قام كينو ولَّف دثاره حول رأسه وأنفه وكتفيه. وضع قدميه في صندله وذهب إلى الخارج؛ ليشاهد الفجر.

أمام الباب، قرفص كينو، وجمع نهاية دثارِهِ حول ركبتيه. رأى قطعًا مِن سحب الخليج ترتفع في السماء. اقتربتْ منه عنزةٌ، شمّتْهُ وحدّقتْ فيه بعينيها الصفراوين الباردتين. خلفه، كانت النار التي أشعلتها جوانا يتقافز لهيبها، وترمي بألسنة الضوء بين الشقوق الدغلية لمنزله. ومِن خلال الباب، ظهرت ألسنة النيران متمايلةً مُهتزَّةً. وفي تلك اللحظات، تسلَّلتْ إلى المنزل فراشةٌ تبحث عن الدفء، بينما كان إيقاع موسيقى أُغنية الأُسرة في رأس كينو يبدو مُتناغمًا مع صوت الحجر الذي تستخدمه جوانا في تجهيز كعك الذرة الصباحي مِن أجل الإفطار، في أحد أركان البيت، عند الموقد.

أتى الفجر سريعًا: لمحةٌ مِن الضوء، والبهاء. ومِن ثم، ملأت الشَّمس الأفق بعد أن تحرَّرت مِن مياه الخليج. نظر كينو لأسفل، وغطَّى عينيه؛ ليحميَها مِن الوهج. كان في استطاعته أن يسمع في ذلك الوقت صوت يَدَيْ جوانا، وهي تُربِّتُ على كعك الذرة مِن داخل المنزل، والرائحة الشهية تملأ المكان. بينما بدا النمل مشغولاً أمام عينيه. سواء كان النمل الأسود الكبير الذي يلتمع جسده، أو الصغير الـمُغبّر السريع. راقب كينو كيف كان الرَّبُّ محايدًا عندما وجد مجموعةً مِن النمل الـمُغبّر تُحاولُ الهرب مِن فخ الرمال الذي صنعته إحدى النملات الكبار. كلبٌ هزيلٌ جاء مُتردِّدًا، مُقتربًا، وبكلماتٍ هادئةٍ مِن كينو، مسح على ذيله، ووضع ذقنه بلطفٍ فوق كومةٍ على الأرض. كان كلبًا أسودَ؛ ببقعٍ صفراءَ ذهبيةٍ في

موضع عينيه. بدا الصباحُ مِثاليًّا أكثر ممَّا هو معتادٌ.

سمع كينو صرير الحبل حيث كانت جوانا تأخذ كويوتيتو مِن الصندوق المعلّق؛ لكي تُنظِّفَهُ وتضعَهُ في شالها بعد أن تعقده؛ لكي يكون الرضيع في موضعٍ بالقُرب مِن صدرها؛ مِن أجل أن ترضعه. كان في استطاعة كينو أن يعرف كل ذلك دون أن يحتاج إلى النظر إليهما؛ لاعتياده رؤية هذه التفاصيل كلَّ صباحٍ.

غنّت جوانا بصوتٍ هادئٍ أُغنيةً قديمةً مِن ثلاثة مقاطعَ وعددٍ لانهائي مِن التنويعات والوقفات. كان ما تُغنِّيه هو أيضًا جزءًا مِن أُغنية الأُسرة. أحيانًا، ترتفع النغمة إلى وترٍ مؤلمٍ لدرجةٍ تقبض على الحلق؛ وأحيانًا تقول: «هذا هو الأمان، هذا هو الدفء، هذا هو كلُّ شيءٍ».

بامتداد السياج الدغلي، حيث توجد المنازل الأُخرى التي تتشابه مع منزل كينو، كان يمكنه أن يرى أدخنة المواقد تتصاعدُ مِن المنازل الأُخرى أيضًا، وهو يسمع أصوات تحضير الإفطار؛ ولكنَّهم ومع ذلك، لديهم أغانٍ أُخرى، وخنازيرهم هي خنازير أُخرى غير تلك التي لديه، وزوجاتهم لسن مثل جوانا. كان كينو شابًا قويًّا ذا شَعرٍ أسودَ ينسابُ على جبينه النحاسيِّ. كانت عيناهُ دافئتينِ ومُتّقدتينِ لامعتينِ، شاربُهُ نحيلٌ أشعث. أخفض الدِّثارَ الآن مِن على أنفه. فالهواءُ الـمُعتمُ السَّامُ ذهب مع ضوء الشمس الأصفر الذي ملأ المنزل والأرجاء. قريبًا مِن سياج الأجمة، كان هنالك دِيكَان، يبدوانِ وكأنهما على وشك الدخول في اقتتالٍ. سيكونُ قتالًا سخيفًا، فهما ليسا دِيْكَيْ قتالٍ بالأساس. شاهدهما كينو للحظاتٍ، ثم رفع عينيه حيث كان سرب الحمام البري يطيرُ؛ ليحطَّ على التلال. استيقظ العالم الآن،

فنهض كينو ليدخل منزله.

بينما كان يدخل كينو مِن الباب، قامت جوانا مِن موضعها أمام حفرة الموقد. أعادت كويوتيتو مِن جديدٍ إلى الصندوق المعلّق، وبعدها مشَّطتْ شَعرها الأسود، وضفّرته في ضفيرتين، وثنتْ أطرافَهُ، وربطتها بشرائطَ خضراءَ. جلس كينو مُقَرْفِصًا أمام النار، لفّ كعكة الذرة الساخنة، وغمَّسها في صوصٍ، وأكلها، ثم شرب القليل مِن البَلكي (شرابٌ كحوليٌّ مكسيكيٌّ يُحضَّر مِن خميرة نبات الصبَّار الأمريكيِّ). كان هذا هو إفطارُهُ، وحسب. هذا هو الإفطار الوحيد الذي عرفه، باستثناء أيَّام الأعياد وكعكاتها المميزة. عندما أنهى إفطاره، كانت جوانا تعود إلى حفرة الموقد مِن جديدٍ لتناول طعامها. تحدَّثا إلى بعضهما البعض لمرَّةٍ، ولكن لم يكنْ هنا حاجةٌ للحديث أكثر مِن ذلك. تنهّد كينو برضا، وسكتَ، فانتهت المحادثةُ عند ذلك الحين.

كانت الشُّمسُ تُدفِّئُ منزلهما الدغلي، تنفذ مِن خلال الشقوق، مِن بين الأجمة في خيوطِ ضوءٍ مستقيمةٍ. واحدةٌ مِن هذه الخيوط كانت تسقطُ على الحبل الذي يحمل الصندوق المعلَّق إلى السقف، حيث يرقد الطفل داخله. كان هناك عقربٌ على الحبل الـمُمتدِّ مِن الصندوق إلى السقف، يهبطُ ببطءٍ. ذيلُهُ الخطِر مُستقيمٌ خلفه، ولكنَّهُ أحيانًا ما كان يثنيه، أو يوجِّهُهُ إلى أعلى في لحظةٍ خاطفةٍ.

راقب كينو المشهد في تلك اللحظة وهو يصدر ما يُشبه الصفير مع أنفه، وكأنَّهُ يتنفَّسُ مِن خياشيمَ. فتح فَمَهُ ليوقف هذا الصوت. وبعد أن تحرَّر مِن تلك النظرة الـمُتجمِّدة، وذهب عن جَسَدِهِ التصلب مِن

أثر المفاجأة، دوَّتْ في رأسه أُغنيةٌ جديدةٌ، أُغنية الشَّرِّ، موسيقى العدوِّ، موسيقى أيِّ خصمٍ يُهدِّدُ أُسْرَتَهُ. كانت نغمةً متوحِّشةً، خطيرةً، ومِن خلفها، كانت أُغنيةُ الأُسْرَةِ تبكي بألمٍ.

تحرَّك العقربُ لأسفلَ، بهدوءٍ، على الحبل تجاه الصندوق، تجاه الرضيع. ومع أنفاسها، كانت جوايا تُعيدُ ترديدَ سحرٍ قديمٍ؛ لتحميَ ابنَها مِن هذا الشر، ومع ذلك السحر، كانت تُتمتم «السَّلام على مريم» مِن بين أسنانها المضمومة. في تلك اللحظات، بدأ كينو في التحرُّك بهدوءٍ ودون أن يُحدثَ ضجَّةً. يداهُ أمامه، مُتدلِّيةٌ لأسفل، وعيناهُ على العقرب. في الصندوق الـمُعلَّق، كويوتيتو يضحك، ويرفعُ يديه في الهواء لأعلى تجاه العقرب مُحاولًا أن يمسكه. بدا الأمر خطيرًا عندما كاد كينو أن يصل إليه. توقَّف العقرب عن الحركة، وارتفع ذيله على ظهره، وظهرتْ عليه ارتعاشاتٌ قليلةٌ، ولمعت الشوكة المنحنية في نهاية الذيل.

لا يزالُ كينو واقفًا في مكانه. يسمع همهمات جوانا مَرَّةً بعد أُخرى، ممتزجةً بموسيقى الشَّرِّ الآتيةِ مِن العدو الذي أمامه. لم يستطعْ أن يتحرَّك، مُنتظِرًا ما سيقوم به العقربُ. أخيرًا، تحركتْ يَدَيْ كينو للأمام ببطءٍ وهدوءٍ شديدٍ. ذيل العقرب القاتل يهتزُّ مُتَّجهًا لأعلى. وفي هذه اللحظة، اهتز الصندوق على وقع ضحكة كويوتيتو، فاهتزَّ الحبل الممسك به إلى السقف، وسقط العقرب داخله.

قفز كينو ليمسك العقرب بين يديه، ولكنَّهُ مرَّ مِن خلال أصابعه، وسقط على كتف الرضيع. حطّ على العقرب في موضعٍ على كتف الرضيع، وضرب ضربته. بعدها، مُزمجِرًا، أمسك كينو العقرب بيديهِ،

وهرسه بين أصابعه حتى أصبح عجينةً. ألقاهُ كينو على أرض المنزل بعد أن صرعه، وعلى الأرض وبقبضتِهِ ظلَّ يضربُهُ حتى أصبح مُجرَّدَ نقطةٍ رطبةٍ. جاء صراخ كويوتيتو مِن الألم، وهو لا يزالُ في الصندوق. كانت أسنان كينو ظاهرةً، وعيناهُ تطِقُّ بالشرر، وأُغنيةُ العدوِّ تُزمجرُ في أُذُنَيْهِ.

أخذتْ جوانا الرضيع بين ذراعيها. وجدتْ موضع اللدغ في كتفه، وحوله احمرارٌ آخذٌ في الازدياد ببطءٍ. وضعتْ شفتيها على موضع اللدغ، وأخذتْ تمصّ، وتبصقُ مَرَّةً بعد أُخرى، بينما يصرخ كويوتيتو مِن الألم.

ظل كينو يدور حولهما، شاعرًا بالعجز، وبدا كأنه في طريقه ليفقد عقله.

أخرجتْ صرخات الرضيع الجيران مِن منازلهم الدغلية. أتوا جميعًا وراء جوان توماس- شقيق كينو- وزوجته البدينة أبولونيا، وأولادهم الأربعة، مُزدحمين عند باب المنزل، فانسدَّ المدخل، ومِن ورائهم آخرون، واقفين يحاولون النظر إلى الداخل. هؤلاء الذين في مُقدِّمَة الجمع يمررون الكلمات لِمَن هم في الخلف «عقربٌ، لدغ الرضيع».

توقَّفتْ جوانا عمَّا تفعله للحظةٍ. التورُّم الصَّغيرُ حول اللدغة أخذ يزداد ببطءٍ، ابيضتَّ حوافُهُ مِن أثر محاولتها لمصّ السم، ولكن الأثر الأحمر حول موضع اللدغ كان يزداد أكثر فأكثر. كان جميع الواقفين يعرفون جيدًا لدغات العقرب. لو كان الأمر يخصُّ رَجُلًا بَالِغًا، فلربما سيمرض مِن أثر اللدغة لبعض الوقت. ولكن بالنسبة لطفلٍ رضيعٍ، فمِن السهل أن يموت مِن أثر السم. في البداية، سيعاني مِن ألمٍ ورعشةٍ وتورُّمٍ،

ثم سيشعر بجفافٍ واحتقانٍ في الحلق، ثم تقلُّصات في المعدة. ربما يموت كويوتيتو لو نفذ ما يكفي مِن السم إلى جسده. في تلك الأثناء، ذهب الألم مِن أثر اللدغة، وتحوَّلتْ صرخات كويوتيتو إلى أنينٍ خافتٍ.

في الكثير مِن الأحيان، أصابت الدَّهشةُ كينو ممَّا يراهُ مِن صلابة زوجته ذات الجسد الهشّ. هي التي بطبيعتها طيِّعةٌ، مَرِحَةٌ، تكنُّ احترامًا كبيرًا له، وصبورةٌ، تتقوَّسُ الآن حول طفلها الذي يتألَّمُ، وتبكي بغزارةٍ. لقد كان في إمكانها أن تصمد أمام الإعياء والجوع أفضل مِن كينو نفسه. وفي القارب، كانت تعملُ معه، وكأنها رَجُلٌ قويٌّ. أما الآن، وهي على هذا الحال، تقوم بالشيء الأكثر إدهاشًا بالنسبة له.

- الطبيب. اذهب وأحضر الطبيب!

هذا ما قالته جوانا، ومُرِّرت الكلماتُ إلى خارج المنزل عن طريق الجيران، الواقفين ويسدّون المدخل، إلى مَن وراءَهُم الذين يقفون في الساحة ثم إلى مَن هم خلف سياج الأجمة. كرَّروا ما قالته بينهم «جوانا تريدُ طبيبًا». سيكون أمرًا رائعًا، أمرًا لا يمكن نسيانه، أن تطلب الطبيب، أن يأتي الطبيب، سيكون علامةً لا تُنسى مِن الذاكرة. لكن، ويا للأسى، لن يأتي الطبيب إلى منطقة البيوت خلف الدغل. لماذا يجب أن يأتي بينما لديه مَن يمكن أن يعتني بهم مِن الأغنياء الذي يعيشون في منازل المدينة؟

قال الجيران المتجمعون في ساحة المنزل: «لن يأتيَ».

ردَّدها الواقفون أمام مدخل البيت، حتى وصلت إلى كينو: «لن يأتيَ الطبيب».

«لن يأتيَ الطبيب إلى هنا».

قالها كينو لجوانا. نظرتْ إليه بعينينِ باردتينِ كعينَيْ لبؤةٍ. هذا أوّل طفلٍ لجوانا. وهو كل ما لديها في هذا العالم. رأى كينو التصميم في عينيها، وإيقاع موسيقى الأُسرة يملأُ رأسه، إيقاعٌ ذو نغمةٍ حادَّةٍ.

- إِذَنْ، سنذهب إليه.

قالتها جوانا وهي تضبط شالها الأزرق حول رأسها بيدٍ، وتصنع مِن أحد طرفيه ما يمكن أن تضع فيه الرضيع قُرب صدرها، واضعةً باليد الأخرى طرف الشال الآخر حول أنفها وعينيها؛ لتحميَهُمَا مِن ضوء النهار. اندفع الواقفون عند الباب للخارج ليسمحوا لها بالعبور، تبعها كينو، وخرجا مِن البوَّابة إلى الطريق، ووراءهما الجيران.

لقد أصبح الأمر الآن شأن الجميع. شكلوا موكبًا دون ضجيجٍ كبيرٍ، وهم ذاهبون في طريقهم إلى مركز البلدة. في المقدمة كانت جوانا ومعها كينو، ومِن ورائهما جوان توماس، وأبولونيا بجسدها الذي كان يهتز بتسارعٍ على وقع هرولة السير، ثم باقي الجيران، ومِن حولهم الأطفال، يُحلِّقون بالحشد، والشمس الصفراء ترمي ظلالهم السوداء أمامهم، بدا الجميع حينها وكأنهم يسيرون على ظلالهم.

وصلوا الآن إلى حيث تنتهي المنازل الدغلية وتبدأ بيوت البلدة الـمُشيَّدة مِن الطوب والصلب، البلدة ذات الجدار الخارجي القاسي والحدائق الداخلية الجميلة. كان هناك القليل مِن رذاذ الماء يتناثر في الهواء، و«البيجينفيليا» (نبات مُتسلِّقٌ) تكسو أسوار المنازل بألوانها

الأرجوانية والحمراء القرميدية والبيضاء. أتتهم مِن الحدائق أصوات العصافير تُغنِّي في أقفاصِهَا، ودفقات الماء تتناثر على أحجار البلاط الساخن. عَبَرَ الحشدُ مركز البلدة مُتَّجِهًا إلى الكنيسة. وازداد الحشد في طريقِهِ بانضمام الآخرين مِن سُكَّان الضواحي المجاورة. بالإضافة إلى الذين عرفوا حكاية الرضيع الذي لدغه عقربٌ، وعرفوا عن الأب والأم اللذين قررا أخذ رضيعهما إلى الطبيب.

المنضمون الجدد إلى الحشد، بخاصة الشحاذون الذي يقبعون أمام الكنيسة، والذين هم خبراء بدون شكٍّ في معرفة القدرة المادية للمارين، نظروا سريعًا إلى التنورة الزرقاء القديمة التي كانت ترتديها جوانا، رأوا الدموع على شالها، قيّموا الشرائط الخضراء المربوطة في نهاية ضفيرتَيْهَا، قرأوا عمر دثار كينو وعدد المرات، والتي تبدو كثيرةً، التي غُسِلت فيها ملابسه، ووضعوهما -كلا الزوجين- في مستوى الفقراء؛ فذهبوا وراءهما، مع الحشد؛ ليروا أيَّ نوعٍ مِن الدراما ربما يتطور مع هؤلاء الناس.

الأربعة شحاذون الذين يجلسون دائمًا أمام الكنيسة كانوا يعرفون كلَّ شيءٍ عن البلدة. يراقبون انفعالات السيدات الشابات اللواتي يأتين مِن أجل الاعتراف وطلب المغفرة. عندما يرونهن، يستطيعون قراءة ما على وجوههن، ويعرفون أيَّ نوعٍ مِن الخطيئة قد ارتكبن. إنهم يعرفون كلَّ شيءٍ تقريبًا، بدايةً مِن الإثم الصغير وصولاً إلى معظم الآثام الكبيرة. ينامون في مواضعهم في ظلّ الكنيسة التي لا يمكن أن يدخل إليها أيُّ شيءٍ، دون أن يكونوا على علمٍ بذلك. كما أنَّهم يعرفون الطبيب. يعرفون جهلَهُ، قسوتَهُ،

جشعَهُ، شهواتِهِ، وخطاياهُ. يعرفون عمليات الإجهاض الخرقاء التي يقوم بها، والبنسات القليلة التي يتصدَّق بها باعتدالٍ. كانوا يرون ضحاياهُ يدخلون الكنيسة كجثثٍ. ومِن وقتٍ طويلٍ، منذ أن توقَّفت العطايا عن الكنيسة، أصبح عمله أبطأ، وأكثر ركودًا. اتّبع الشحاذون الحشد، بعد أن عرفوا جيِّدًا حكاية مَن سيتبعونهم؛ ليروا ماذا سيفعل الطبيب البدين مع أَبٍ وأُمٍّ جاءا بطفلهما الرضيع الفقير المصاب بلدغة عقربٍ.

توقَّف الجمعُ الـمُنطلِق أخيرًا أمام البوابة الكبيرة لمنزل الطبيب. كان في استطاعتهم أن يسمعوا دفقات المياه وتغريد الطيور في أقفاصها، وأصوات كنس البلاط بالمقشات الكبيرة. كان في استطاعتهم أيضًا أن يشمّوا رائحة قليّ لحم خنزيرٍ مُقدَّدٍ مِن نوعٍ جيِّدٍ تأتيهم هي الأُخرى مِن داخل منزل الطبيب.

تردد كينو للحظةٍ. هذا الطبيب ليس من قومِهِ. هذا الطبيب وسلالته هَزموا، وجَوَّعوا، وسَرقوا وأَذلُّوا سلالة وقوم كينو منذ ما يقرب مِن ٤٠٠ عامٍ. لذا، كان هو، بوصفه أحد السكان الأصليين لهذا المكان، يأتي إلى منزل الطبيب خافضًا رأسه. وكما اعتاد كينو عند لقائه أيًّا مِن أبناء هذا العِرْقِ، كان يجد نَفْسَهُ يشعر بالضعف والخوف والغضب في الوقت نَفْسِهِ. الغضب والرهبة يأتيانِ معًا. في استطاعته أن يقتل الطبيب، وهو أمرٌ أسهل عليه مِن أن يتحدث إليه. فجميع أبناء عِرْق الطبيب يتحدثون إلى جميع أبناء سلالة كينو كما لو كانوا ببساطةٍ مُجرَّدَ حيواناتٍ. وعندما رفع كينو يده اليمنى ليمسك بالحلقة المعدنية لمطرقة الباب، ازداد الغضب داخله، وظلّت موسيقى العدوّ تقرع في أُذُنَيْهِ، وهو يعضّ على شفتيه بأسنانِهِ.

ولكن في الوقت نفسه، وبيده اليسرى، خلع قُبَّعَتَهُ استعدادًا للحظة اللقاء. دقَّت الحلقة الحديدية على البوَّابة مرتدةً عنها لوهلةٍ. خالعًا قبعة رأسه، وقف كينو مُنتظِرًا. يَئِنُّ كويوتيتو قليلًا بين ذراعَيْ جوانا، بينما هي تتحدث إليه بصوتٍ يكاد يكون همسًا. يتزاحم الجميع مقتربين مِن البوَّابة؛ ليروا ما سيحدث، وليتمكنوا مِن سماعٍ أفضلَ لِمَا سيُقال.

بعد لحظةٍ، فُتِحَت البوَّابة الكبيرة لبضع بوصاتٍ. استطاع كينو أن يرى مِن خلال تلك الفتحة اللونَ الأخضرَ للحديقة، والرذاذ المتصاعد مِن فتحة النافورة. الرجل الذي نظر إليه مِن الداخل كان مِن نَفْسِ عِرْقِهِ. تحدث كينو إليه باللغة القديمة.

«الصغير -أوَّلُ ابنٍ لي- لدغه عقربٌ». قالها كينو، ثم أكمل «يحتاج إلى مهارة الطبيب».

أُغلِقت البوَّابةُ قليلًا، رفض الخادم أن يتحدَّث باللغة القديمة.

«لحظة صغيرة، سأذهب لأخبر الطبيب عن الأمر بنفْسي».

أُغلِقت البوَّابة تمامًا، وأُنزِل المزلاجُ. والشمس الباهية ترمي الظلال السوداء للجمع المتزاحم على الحائط الأبيض لمنزل الطبيب.

في غرفته، جلس الطبيب على سريره العالي. كان يرتدي ثوبَ نومٍ أحمرَ مِن الحرير الناعم المتلألئ الذي يأتيه مِن باريس، كان الثوب مغلقًا بعض الشيء عند الصدر، وعلى ركبتيه. وكان هناك صينيةٌ فضيَّةٌ عليها طبقٌ فضيٌّ به شوكولاتة في كأسٍ مِن الصيني الرقيق. وهو المشهد الذي أصبح سخيفًا ومثيرًا للسخرية عندما حاول الطبيب إخراج أصابعه الكبيرة

مِن حلقة الكأس الصغيرة. تحيطُ بعينَيهِ انتفاخاتٌ مِن اللحم، ويتدلَّى فَمُهُ كما لو أنَّهُ يشعر باستياءٍ دائمٍ. كان الطبيب قد غدا أكثر بدانةً، وصوته أكثر غلظةً مِن أثر البدانة الضاغطة على حنجرته. جواره، على مائدةٍ، كان هناك جرسٌ ملكيٌّ صغيرٌ، وآنيةٌ بها سجائر. أثاث الغرفة ثقيلٌ وداكنٌ، وبه شيءٌ مِن كآبةٍ واضحةٍ. الصور الدينية تملأُ المكان، حتى صور زوجته المتوفية تظهر كبيرةً ومؤطَّرةً على طريقة الصور الدينية. ربما لو كانت الصدقات التي يدفعها مِن أجلها يجب أن تضع زوجته في مكانٍ ما، فبالتأكيد يجب أن تكون الآن في الفردوس. في يومٍ ليس ببعيدٍ، كان الطبيب جزءًا مِن عالمٍ رآه عظيمًا، كانت حياته الحالية هي حالةٌ مِن الشوق والحنين لما كانت عليه الأمور أثناء عيشه في فرنسا.

ذلك العيش الذي قال عنه: «كانت حياةً مُتحضِّرةً».

الأمر الذي كان يعني أن في إمكانه الاحتفاظ بعشيقةٍ، وأن يأكل في المطاعم بمقابلٍ قليلٍ. صب كأسه الثاني مِن الشوكولاتة السائلة، وفتَّت بين أصابعه شرائح البسكويت الحلو. جاء الخادم مِن البوَّابة، ووقف أمام الباب المفتوح منتظرًا أن يلحظه الطبيب.

«نعم؟» سأله الطبيب.

«هناك رضيعٌ هنديٌّ صغيرٌ، أبوه يقول أنَّ عقربًا قد لدغه».

وضع الطبيب كأسه بهدوءٍ قبل أن ينفجر غضبًا.

«هل لم يعد لديّ ما أفعله سوى معالجة الرضّع الهنود مِن لدغات الحشرات؟ أنا طبيبٌ ولست بيطريًّا».

علّق الخادم: «نعم، سيدي.»

سأله الطبيب: «هل لديه أيُّ نقودٍ»؟

«لا. ليس لديهم أيُّ نقودٍ».

«أنا الوحيد في هذا العالم الذي مِن المفترض أن يعمل دون مقابلٍ. لقد تعبتُ مِن كل ذلك. اذهب واسأله إن كان لديه أيُّ نقود».

فتح الخادم البوابة بقدرٍ ضئيلٍ، نظر إلى الحشد الواقف في الخارج، وفي هذه المرة تحدث باللغة القديمة.

«هل لديك نقودٌ لتدفع مِن أجل العلاج؟»

أدخل كينو يده تحت دثاره، وصل لمكانٍ سريٍّ، وجلب ورقةً مطويَّةً عدَّةَ مرَّاتٍ، مُتجعِّدةً، ازداد تجعدها عند محاولته فتحها. في النهاية، ظهر ما كان تحتويه: بذورٌ مشوهةٌ للآلئ رماديّة اللون كما لو أنها تقرح، مُسطّحة وعديمة القيمة تقريبًا.

أخذ الخادم الورقة، وأغلق البوَّابة مِن جديد. ولكن هذه المرة لم يتأخر. فتح البوابة مِن جديدٍ بقدرٍ كافٍ؛ ليردَّ الورقة إلى كينو.

«الطبيب خرج، تم استدعاؤه لحالةٍ خطيرةٍ».

ثم أغلق البوّابة بسرعةٍ لمداراة شعوره بالخزي.

سرت موجةٌ مِن الشعور بالهوان والقهر في الحشد كله. انفضوا جميعًا؛ عاد الشحّاذون إلى مواضعهم عند الكنيسة، مشى المتشردون بعيدًا، ورحل الجيران، هكذا، يمكنهم محاولة ألا يظهر في أعينهم الشعور

بالخجل وقلة حيلةٍ التي اجتاحتهم بعد ما حدث مع كينو.

لوقتٍ طويلٍ، وقف كينو أمام البوَّابة، وجواره جوانا. ببطءٍ وضع قُبَّعته على رأسه. ثم وبدون أيِّ تحذيرٍ، ضرب بعنفٍ البوَّابة بقبضة يده. نظر لأسفل بعدما أنزل يده، حيث شعر بآلامٍ في مفاصل يده، ووجد الدم ينزف مِن بين أصابعه.

(٢)

تقع البلدة على المصب الواسع للنهر. بنايتها الصفراء القديمة تحتضن الشاطئ. الشاطئ الذي تركن إليه القوارب ذات الألوان البيضاء والزرقاء المصنوعة في «نياريت» (بلدة مكسيكية)، والتي حافظ عليها وتوارثها الصيَّادون هنا جيلاً بعد جيلٍ، حافظوا عليها، ورمّموها بالدهان المخلوط بالصَدَف الصلب، اللذين يُقاومان أثر الماء. كانت خلطة هذا الدهان بمثابة أحد الأسرار التي يتوارثها صيادو البلدة عبر أجيالهم. وكانت القوارب كبيرةً وعاليةً، جميلةً، ذات مُقدِّماتٍ ومُؤخِّراتٍ مُنحنيةٍ، وجزءٍ في منتصف جسدها مِن أجل أن يسمح بحمل شراعٍ صغيرٍ.

كان الشاطئ ذا رمالٍ صفراءَ، تكسوا المكان، باستثناء حافة الماء، التي كانت ممتلئةً بالحصى، والأصداف، والقواقع، والطحالب. السرطانات العابثة تطقطق وتبقبق في جحورها على رمال الشاطئ. وفي المياه الضحلة، سلطعوناتٌ صغيرةٌ تتقافز داخل وخارج منازلها التي

حفرتها ما بين حصى ورمال الشاطئ. كان قاع البحر غنيًّا بالكائنات التي تزحف وتسبح وتنمو. الطحالب البُنِّيَّة تترك نفْسها مع الموج وتيارات المياه الهادئة، والأعشاب الخضراء التي يعيش فيها الإنكليس تتمايلُ مع حركة الماء، وأحصنة البحر الصغيرة تلتصقُ بسيقان النباتات التي تعيشُ بينها. وهناك سمكة «ينفوخة» مُرقَّطة -سمكة السم- تستلقي في قاع أعشاب الإنكليس الخضراء، والسلطعونات السابحة ذات الألوان اللامعة يركضون مِن حولها.

على الشاطئ، كلاب وخنازير البلدة تبحث بلا توقُّفٍ عن أيِّ شيءٍ لتأكله: سمكةٍ ميِّتةٍ، طائرٍ بحريٍّ، ربما يكون قد أتى إلى الشاطئ مع حركة المد.

على الرغم مِن أنَّ الصباح كان لايزال في بدايته، كان سرابٌ ضبابيٌّ قد ارتفع فوق الخليج. هذا الطقس الضبابي المعلّق فوق الخليج يُضفي انعدامًا لليقين في الأشياء. يُكبِّر بعض الأشياء، ويمحو أشياءَ أُخرى مِن الأفق، جعل كلَّ ما يمكن مشاهدته في تلك الآونة غير حقيقيٍّ. فأصبح مِن الصعب أن تثق في الرؤية. لذا، فبدا البحر والأرض متسمين بوضوحٍ شديدٍ، وغموض الحلم في الوقت نفْسه. ولهذا، كان سُكَّان الخليج يعتقدون في أمورٍ روحيةٍ وخياليةٍ ذات صلةٍ بهذا الضباب. ولكنهم مع ذلك لم يثقوا في أعينهم التي يرون بها الأفق الذي لم يكنْ في الإمكان أن يحمل أيَّ يقينٍ بصريٍّ في تلك الأوقات. عبْر المصب، ومرورًا بالبلدة، كان هناك قطاعٌ كبيرٌ مِن أشجار المانجروف الشامخة، تقف واضحةً للعيان، يمكن تمييزها دون أيِّ شكٍّ في ذلك. في الوقت نفسه، كان هنالك أجمةٌ أُخرى

مِن المانجروف أيضًا، ولكنها تبدو وكأنها سائلٌ في الهواء، له مزيجٌ مِن اللون الأسود والأخضر، مُعلَّقٌ في السديم الضبابي. يختفي جزءٌ بعيدٌ مِن الشاطئ في بهاءٍ أبيضَ يُقاربُ الماء. ليس هناك أيُّ شيءٍ مُؤكَّدٌ يمكن أن تراه في هذه الأجواء، ليس هناك دليلٌ على أنَّك قد رأيتَ ذلك الشيء، أو لم تره. والناس هنا، في الخليج، يعرفون أنَّ كلَّ الأشياء تكون على هذا الحال في ذلك الوقت مِن اليوم؛ فلم يكن الأمر غريبًا بالنسبة لهم أبدًا. والضباب ذو اللون النحاسيِّ لايزالُ مُعلَّقًا فوق الماء، وشمس الصَّباحِ الحارَّةِ تُحاول أن تهزمه، تنفذ مِن خلاله؛ لتُعيدَ إلى الأشياء وضوحها على مدّ الأفق.

تستقرُّ أكواخ الصيَّادين العائدين مِن الشاطئ على الجانب الأيمن مِن البلدة، وأمامها تظهر قواربهم راسيةً.

نزل كينو وجوانا ببطءٍ إلى الشاطئ، حيث المكان الذي يرسو فيه قارب كينو. كان ذلك القارب هو الشيء الوحيد ذو القيمة الذي يمتلكُهُ كينو في هذا العالم. كان القارب قديمًا للغاية. اشتراه جد كينو مِن «نياريت»، ثم أعطاه لابنه، ثم وصل تاليًا إلى كينو-الحفيد. لقد كان هو الشيء الوحيد الذي يمتلكه، وفي الوقت نفْسه هو مصدرُ رِزقِهِ الوحيد أيضًا. إنَّ رجلًا معه قاربٌ، يمكنُ أن يكفل امرأةً، يمكن أن يوفِّرَ الطعام لامرأتِهِ. لقد كان ذلك القارب حصنًا ضد أن يصابا بالمجاعة. وفي كلِّ عامٍ، يعيدُ كينو ترميم قاربه بالطريقة السرية التي يعرفها الصيَّادون وحدهم، والتي ورثها مِنْ أبيه، الذي عرفها مِن الجد. يصل كينو لقاربه، يلمس المقدمة برفقٍ كما يفعل دائمًا. يضع صخور الغوص خاصته وسلته وحبلين على الرمال

أمام القارب. خلع دثاره مِن حوله، ووضعه على مقدمة القارب.

وضعت جوانا كويوتيتو على الدثار، ثم غطّته بشالها الأزرق؛ لكي لا تُعرِّضه لأشعة الشمس الحارة. كان هادئًا الآن، لكنَّ التورُّم الذي على كتفه كان قد أخذ في التمدُّد حتَّى رقبته وأسفل أُذُنِهِ، وأصبح وجهُهُ منتفخًا ومحمومًا. ذهبتْ جوانا، وتوغَّلت في الماء بصعوبةٍ. جمعتْ بعض الأعشاب البحرية والطحالب بُنِّيَّة اللون، وصنعتْ منها كمَّادةً رطبةً مُسطّحةً، ثم وضعتْها على الكتف الملدوغ المتورِّم للرضيع، وهو الأمر الذي بدا جيِّدًا وفعالًا، مثل أيِّ علاجٍ، بل مَن المحتمل أن يكون أفضل مِن أيِّ علاجٍ سيكتبُهُ الطبيب لكويوتيتو الرضيع. لكنَّ هذا العلاج كان يفتقد السلطة والتأثير النفسي الذي كانت تمتلكُهُ الأدوية الأُخرى؛ لأَنَّهُ كان بسيطًا ولا يُكلِّفُ شيئًا. لم تأتِ تقلصات المعدة لكويوتيتو. ربما تكون جوانا قد مصَّت السم في الوقت المناسب، ولكنها مع ذلك لم تلفظْ قلقها على ابنها، أوَّل مولودٍ لها. لم تصلِ جوانا مِن أجل أن يشفى ولدها، لكنَّها دعتْ مِن أجل أن يجدا لؤلؤةً تُمكِّنُهُمَا مِن أن يستقدما طبيبًا لعلاج الرضيع. كانت هذه أحد أنواع الصلوات والأفكار والأمنيات المتخيّلة المستحيلة تقريبًا، والتي في الوقت نفسه تملأُ عقول النَّاس هنا، كما هو حال الوهم الذي يتركُهُ ضباب الخليج في الناظر إليه.

الآن، كينو وجوانا يعملانِ على إزلاق القارب مِن الشَّاطئ إلى الماء. عندما طافت الـمُقدِّمة، تسلّقتْ جوانا الحافَّة إلى داخل القارب، بينما أخذ كينو يدفع الـمُؤخِّرة؛ ليدخل موغِلًا في الماء بصعوبةٍ؛ حتى طفا القارب بخفَّةٍ، واهتزَّ مِن أثر الموجات الـمُتكسِّرة على جسده في ذلك الحين.

بعد ذلك، وبشيءٍ مِن التنسيق، قاد كينو وجوانا القارب بمجدافيهما المزدوجين الأبيضين. في ذلك الوقت، كان الآخرون مِن الباحثين عن اللآلئ قد خرجوا جميعًا إلى البحر منذ وقتٍ طويلٍ. في لحظاتٍ قليلةٍ، استطاع كينو أن يراهم في تجمُّعاتٍ مُتناثرةٍ في جسد الضباب الـمُمتدّ، يقودون قواربهم فوق هذا الحوض الممتلئ بالمحار.

تغلغل الضَّوءُ في الماء واصلاً إلى قاع البحر، حيث تقبع محار اللآلئ الـمُزخرفة ملتصقةً ببعضها البعض على القاع المفروش بالحصى، ومِن فوقها الأصداف والقواقع المحطّمة والمحار المفتوح. كانت لآلئ ذلك القاع هي ما دعم قوَّة ملك إسبانيا في أوروبا في السنوات الماضية. فقد ساعدته على أن يدفع الأموال مِن أجل أن يخوض حروبه، زخرفة وتزيين كنائسه في خضَّم سعيهِ الروحيِّ. للمحار الرماديِّ تموُّجاتٌ على سطحه، تُشبه تلك التي على التنُّورات. وعلى هذا السطح، هناك القليل مِن الطحالب التي تلتصقُ بهذه التموُّجات، سلطعوناتٌ صغيرةٌ تُحاول تسلّقها والمرور منها. وسط هذا كله، يُمكنُ أن يحدث أمرٌ ما لذلك المحار، مثل أن تتغلغل بعضُ ذرَّاتٍ مِن الرمال ما بين طبقات عضلاتها، فيرتعشُ اللحم، ويعمل على حماية المحار بشكلٍ ذاتيٍّ، فيغُطي ذرَّات الرمال الناعمة بطبقاتٍ مِن مادَّةٍ ذات لونٍ وهيئةٍ تبدو أسمنتيةً. ولكنْ بمجرد أن يبدأ في تلك العمليَّة، يظلُّ في تغطية الجسم الغريب، حتى تشعر العضلات بالحرية مِن جديدٍ. لقرونٍ، غاص الرجال في الماء، ومزّقوا الكثير مِن تلك المحار، وفتحوها عنوةً، باحثين عن تلك الرمال المكسوّة. أسرابٌ مِن الأسماك تعيشُ قريبةً مِن ذلك القاع، حيث يُلقى المحار في الماء مجدَّدًا مِن قبل الرجال

الباحثين، فتلتقط هي ما تبقى مِن لحمٍ بتلك الأصداف. ولكنَّ العثور على اللآلئ كان مُجرَّد حوادثَ عارضةٍ. إيجادُ إحداها كان حظًّا محضًا. شيءٌ مثل تربيتةٍ مِن الرب أو الآلهة أو كليهما على ظهر المرء.

كان لدى كينو حبلان؛ أحدهما- مربوطٌ في صخرةٍ كبيرةٍ، والآخر- مربوطٌ في السلّة. خلع كينو قميصه وبنطاله، ووضع قُبَّعته على أرضية القارب. كان سطح الماء يبدو أملسَ، كما لو كان زيتيًّا. أخذ كينو الصخرة في يدٍ، والسلة في اليد الأُخرى. ترك الصخرة تنزلق أولًا مِن على حافة القارب، وترك نفسه معها لتأخذَهُ إلى قاع الماء. تصاعدتْ فقَّاعات الهواء مِن حَوْلِهِ، ثم أصبح الماء صافيًا، فأمكنَهُ أن يرى مِن جديدٍ. فوقه، كان سطح الماء كمرآةٍ مُتموِّجةٍ مِن الوهج والسطوع. كان في استطاعتِهِ أن يرى الأجزاءَ السُّفليَّةَ مِن القوارب مُلتصقةً بالماء بامتداد الأفق الذي كان يراه الآن مِن قاع البحر.

تحرّك كينو بحرصٍ؛ حتى لا يتعكَّر الماء على إثر اهتياج الرمل. ربط قدمه بعقدةٍ في صخرته، وأخذتْ يداهُ تعملانِ بسرعةٍ: ينزّع المحار الذي يستقرُّ في القاع بمفردِهِ، أو الذي يكون في تجمُّعاتٍ مُتشابكةٍ، واضعًا جميعها في السلة. في بعض الأماكن، كان المحار ملتصقًا ببعضه البعض للغاية، لذا كان ينزعه كلها ككتلةٍ واحدةٍ، ويضعه كمجموعاتٍ.

في تلك الأوقات، كان قوم كينو يُغنُّون لكلِّ شيءٍ يحدث. كانت لديهم أغانٍ للأسماك، للبحر في غضبِهِ، للبحر في هدوئِهِ، للنور، للظلمة، للشمس، للقمر. كانت الأغاني كلها تملأُ ذاكرة كينو وقومه، كل أغنيةٍ ألّفوها، سواء ما زالوا يتذكرونها أو نسوها. وعندما ملأ سلّته، كان هنالك

أغنيةٌ تصدحُ داخل كينو، كان إيقاع الأغنية يتزامنُ مع نبض قلبه الذي يأكلُ الأكسجينَ الـمُختزن مع نَفَسِهِ الـمُنحبِس. كانت نغمة الأغنية تنسجم مع الماء الرمادي الأخضر والكائنات الصغيرة التي تنتشر في القاع وأسراب الأسماك التي تسبح في الجوار، ثم أكملتْ سيرها بعيدًا. ولكنْ داخل الأغنية، كان هناك نغمةٌ صغيرةٌ مِن الصعب ملاحظاتها، ولكنها دائمًا ما كانت هناك. نغمةٌ جميلةٌ، سرّيّةٌ، ومتشبّثةٌ بموضعها، وغالبًا ما تكون متخفيّةً في النغمة الأساسية. كانت هذه هي نغمة أغنية «ربما تكون اللؤلؤة». ومع كل محارةٍ يضعها كينو في السلة، كان مِن الممكن أن يكون داخلها لؤلؤةٌ. كانت الاحتمالات ضدَّ أن يحدث ذلك الأمر. ولكن الحظ، والآلهة مِن الممكن أن يجعلوا الأمر ممكنًا. وفي القارب، فوقه، كان كينو يعلم أنَّ جوانا تتلو صلواتها وتتمتِمُ بسحرها، وجهها متصلِّبٌ بعض الشيء، وعضلاتها مشدودةٌ، وكأنها تريدُ أن تُجبِرَ الحظ على أن يأتي، تريدُ أن تنتزعه مِن يد الآلهة. كانت تحتاجُ للحظِّ؛ لتُعالجَ رضيعها كويوتيتو المتورِّم كتفه. ولأنَّ الاحتياج كان كبيرًا والرغبة كانت هائلةً، فنغمةُ «ربما تكون اللؤلؤة» الصغيرة السرية أصبحتْ أقوى هذا الصباح. كلُّ عبارات الأغنية جاءت قويةً واضحةً في نسيج أغنية «تحت البحر».

كينو، الممتلئُ بالقوة والشباب والفخر، كان في استطاعته أن يظلَّ تحت الماء أكثر مِن دقيقتين دون أن يشعر بالإجهاد، لذا كان يعمل متعمِّدًا اختيار الأصداف الأكبر حجمًا، والتي كانت متناثرةً في القاع. أصداف المحار الكبيرة التي تكون منغلقةً بإحكامٍ شديدٍ. كان أمامه ربوةٌ مِن الصخور المتراكمة الملتصق بها البرتقيل (ذوات الأهداب) مرتفعة عن

القاع. وعلى هذه الربوة كان هناك العديد مِن المحار الصغير الذي لم يكن قد اكتمل نموُّهَا بعد. تحرك كينو صوب هذه الربوة التي كان يبرز منها جزءٌ جانبيٌّ يظلِّلُ شيئًا مِن القاع. تحت ذلك الجزء الـمُظلِّل، رأى كينو محارةً كبيرةً تقبع غير مُغطَّاةٍ بأصدافٍ أو محارٍ آخر، وهو أمرٌ لم يكنْ مُتوقَّعًا أو عاديًّا، أن تكون هناك قوقعةٌ كبيرةٌ بلا أصدافٍ أُخرى متشبِّثةٍ بها. وكانت الصدفة مفتوحةً جزئيًّا، فخمَّن أنَّ الجزء البارز مِن الربوة الصخرية حمى المحار العتيق. وفي العضلة التي تُشبِهُ الشِّفاه، رأى كينو وميضًا شبحيًّا، انغلقتْ بعدَهُ الصَّدَفَةُ فجأةً. دق قلب كينو بإيقاعٍ ثقيلٍ، وأصبحت موسيقى «ربما تكون اللؤلؤة» صاخبةً في أُذُنَيْهِ. ببطءٍ، نزع كينو القوقعة مِن مكانها، وحملها بإحكامٍ مُقرِّبًا إيَّاها مِن صَدرِهِ. ركل قدمه مُحرِّرًا إيَّاها مِن العقدة التي تربطه بالصخرة، تاركًا جسده يرتفعُ إلى السطح وشَعره الأسود يلمع في ضوء الشمس. وصل إلى حافَّةِ القارب واضعًا القوقعة فيه أوَّلاً.

أمسكتْ جوانا القارب مُثبِّتةً إيَّاه عندما كان كينو يتسلَّق حافَّتَهُ. كانت عيناهُ تلمعانِ من أثر الانفعال، ولكن في شيءٍ مِن الاتزان، رفع صخرتَهُ، ثم سلَّتَهُ الـمُمتلئة بالمحار، ووضعهما في الداخل. شعرتْ جوانا بالانفعال الذي كان يعتليه، وتظاهرتْ أنها تنظر بعيدًا. ليس أمرًا جيدًا أن تريدَ شيئًا للغاية. أحيانًا، يدفع هذا الحظَّ بعيدًا عنك. عندما ترغبُ في شيءٍ، يجب أن يكون ذلك بشكلٍ كافٍ، وليس أكثر مِن ذلك. ويجب أن تكون لبقًا مع الرب، أو الآلهة، أو كليهما. توقَّفتْ جوانا عن التنفُّس مِن أثر الانفعال. بتأنٍّ، فتح كينو سِكِّيْنَهُ الصغير القوي، نظر إلى السلّة بشيءٍ مِن الـمُضاربة

والترجيح. رأى أنَّهُ سيكون مِن الأفضل أن يفتح «المحار الكبير» في النهاية. أخذ إحدى المحارات الصغيرة مِن السلّة، قطع العضلة بحثًا بين طبقات اللحم، ثم رماها في الماء. بعد ذلك، شعر كينو بميلٍ ليفتح المحار الكبير أولاً. قرفص على أرضية القارب، أمسك الصَدَفَةَ، وأخذ يتأملها. كانت أخاديدها تلمعُ ما بين الأسود والبُنِّيِّ، وفقط القليل مِن «البرتقيل» (ذوات الأهداب) تلتصقُ بها. كان كينو مُتردِّدًا في فتح المحار. يعلم أنَّ ما رآه ربما لا يكون إلَّا انعكاسًا للضوء، أو قطعةً مِن صَدَفَةٍ جنحتْ مُصادفةً، أو أن الأمر كله مُجرَّد وهمٍ. في هذا الخليج، كان يمكن أن يكون كلُّ شيءٍ غيرَ مُؤكَّدٍ، والأوهام هنا أكثر مِن الحقائق.

ولكنَّ عينيْ جوانا لم تفارقا النظر إليه، لم تكنْ تستطيع الانتظار. وضعتْ يدها على رأس كويوتيتو الـمُغطَّى.

«افتحها».

قالتها بلطفٍ.

بحذقٍ، مرَّر كينو سكِّينَهُ ما بين حافَّتَي الصدفة. ومِن خلال السكِّين استطاع أن يرى العضلات مُنقبضةً بشدَّةٍ. أخذ يُعمِل النصل بشيءٍ مِن التمهُّل والحكمة، حتى أخذت العضلة الـمُنغلقة تنفتح جزئيًّا، وبدا أنَّ القوقعة في طريقها إلى أن تنفتح تمامًا. هدأ اللحم الذي يُشبه الشفاه بعد أن تلوّى. رفع كينو اللحم بسكِّينِهِ، وهناك، كانت تقبعُ لؤلؤةٌ كبيرةٌ. كانت مثاليَّةً كما لو أنها القمر عندما يكون بدرًا؛ تخطفُ الضوء، كما لو أنها تُنقِّيه، ومِن ثَمَّ تُعيدُهُ إليك في توهُّجٍ فضيٍّ أخَّاذٍ. كانت اللؤلؤة كبيرةً، كما

لو أنها بيضة أحد نوارس البحر. لقد كانت أعظم لؤلؤةٍ في العالم.

حبستْ جوانا أنفاسها، وأَنَّتْ قليلًا. أما كينو، فكانت النغمة الخافتة لـ «ربما تكون اللؤلؤة» قد أخذتْ تتعالى واضحةً وجميلةً، غنيَّةً ودافئةً ومُحبَّبةً، لامعةً ومُبتهجةً ومُنتصرةً. على سطح اللؤلؤة الكبيرة، كان في استطاعته أن يرى أحلامه باختلافاتها. أمسك باللؤلؤة مِن بين اللحم الميت للمحار، وقبض عليه بكفِّهِ. أتتْ جوانا قُرْبَهُ؛ لتُحدِّق فيها وهي في يده التي أُصيبتْ بعد أن ضرب بها بوَّابة الطبيب. كان الجزء الذي أُصيب فيما بين مفاصل الأصابع قد تحوَّل إلى أبيضَ رماديٍّ مِنْ أثر الماء المالح.

غريزيًّا، ذهبتْ جوانا إلى كويوتيتو حيث يستلقي على دثار والده. رفعتْ كَمَّادة الطحالب، ونظرتْ إلى كتفه. «كينو!» هتفت بصوتٍ أجشٍّ حادٍّ.

نظر إلى لؤلؤتِهِ، ثم نظر إلى التورُّم الذي كان في كتف الطفل وقد بدا أنه ذهب، خرج السم مِن جسد الرضيع. بعدها، أغلق كينو راحته على اللؤلؤة، بينما انفعاله يزداد ويعلو. وقف، وأرجع رأسه إلى الوراء، وصرخ. خرج صراخُهُ كما لو أنه عواءٌ. تصلّب وهو يصرخ، ودارت عيناهُ في الأفق. أمَّا الرجال في القوارب الأُخرى، فكانوا ينظرون إلى مكان الصراخ، وتفاجئوا. ضربوا بمجاديفهم في الماء مُتسابقين وهم يتجهون نحو قارب كينو.

(٣)

تبدو البلدة وكأنها حيوانٌ استعمر المكان. عندما تنظر إليها بعينَيْ طائرٍ مُحلِّقٍ، تشعر وكأن لديها جهازًا عصبيًّا، ورأسًا، وأكتافًا، وأقدامًا. وهي تختلفُ عن كل البلدات والمدن الأُخرى. تبدو البلدة وكأنها إنسانٌ؛ حيث لديها شبكة أعصابٍ كاملةٌ مثل التي لدينا. فكيفية انتقال الأخبار عبر البلدة لا يزالُ بمثابة لغزٍ، ليس مِن السهل حَلُّهُ. الأخبارُ تبدو وكأنها تتحرَّكُ أسرع مِن الأطفال الصغار الذين يثبون لينقلوها، وأسرع مِن النساء اللواتي يمكنهن أن تتناقل مِن أفواههن عبْر الأجمة.

ومِن قبل أن يذهب كينو وجوانا والصيّادون الآخرون إلى منزل كينو، كانت الخلايا العصبية للبلدة تنبضُ وتهتزُّ بالأخبار. «كينو وجد لؤلؤة العالم». حتى مِن قبل أن يستطيع الأطفال الصغار اللاهثون أن ينطقوا بالكلمات، عرفتْ أُمَّهاتُهم الأخبار، وانتقلتْ على الألسنة حتى وصلت

إلى ما وراء المنازل الدغلية، وسبحتْ في الأفق كأنَّها موجةٌ رغويةٌ، حتى وصلت البلدة ومنازلها الفارهة. وصلتْ إلى القس، بينما كان سائرًا في حديقتِهِ، فظهر على ملامحِهِ وعينيهِ شيءٌ مِن التفكير، وتذكر ضرورة إجراء إصلاحاتٍ عاجلةٍ في الكنيسة. فكَّر إلى أيِّ حدٍّ ستصل قيمة اللؤلؤة، فكَّر فيما إذا كان قد عمّد ابن كينو، أو إن كان قد زوّج كينو. وصلت الأخبار إلى أصحاب المحال، فنظروا إلى ملابس الرجال في المعروضات والتي لم تُبع جيدًا. وصلت الأخبار إلى الطبيب، بينما كان جالسًا مع امرأةٍ، كان التقدُّم في العمر هو مرضها الوحيد. ومع ذلك، لا هي ولا الطبيب كانا سيعترفان بذلك. وعندما تأكَّدَ مِن الأخبار التي جاءته عن كينو ولؤلؤته، بدا أكثر حصافةً: «إنه زبوني؛ كنتُ أعالج طفله مِن لدغة عقربٍ». ودارتْ عينه قليلاً في مقلتيه البدينتين مُتذكِّرًا باريس. تذكَّر حجرته التي عاش فيها حياةً رائعةً ومترفةً، تذكَّر تلك المرأة ذات الوجه الصارم التي عاشت معه كفتاةٍ جميلةٍ وطيبةٍ، مع أنها لم تكنْ بها أيٌّ مِن هذه الصفات الثلاث. نظر الطبيب إلى مريضتِهِ الـمُسنَّةِ، لكنَّهُ لم يكنْ يراها، كان يرى ماضيه، وهو يجلس في مطعمٍ في باريس بينما النادل يفتحُ له زجاجة نبيذٍ.

أتت الأخبار مُبكِّرًا إلى الشحَّاذين القابعين في أماكنهم أمام الكنيسة، أخذوا يقهقهون قليلاً بسعادةٍ. كانوا يعرفون أنَّهُ ما مِن أحدٍ يُعطي صدقاتٍ بكرمٍ في العالم مثلَ رجلٍ فقيرٍ، أصبح فجأةً محظوظًا وغنيًّا.

لقد وجد كينو «لؤلؤة العالم». في البلدة، في المكاتب الصغيرة، جلس الرجال الذين يشترون اللآلئ مِن الصيَّادين منتظرين في مقاعدهم حتى تأتيهم اللآلئ، ومِن ثَمَّ يثرثرون ويتقاتلون ويصرخون ويهددون حتى

يصلوا لأقل سعرٍ يمكن أن يقبلَ به الصيَّاد. ولكنْ هناك حدٌّ أدنى للسعر، لا يستطيعون أن يُخاطروا بأن يعرضوا أقلَّ منه. وصلوا لهذا السعر بعد حادثةٍ هزّتهم جميعًا، عندما ذهب أحد الصيَّادين في يأسٍ، وأعطى لآلئَهُ للكنيسة، بعد أن أرادوا شراءَهَا بسعرٍ زهيدٍ. توقَّف الشراء حينَهَا، وجلس المشترون في مكاتبهم صامتين، تلعب أصابعُهُمُ باللآلئ بلا توقُفٍ، مُتمنين لو كانوا يملكونها فعلاً. لم يكنْ هناك العديد مِن المشترين في الحقيقة. كان هناك مُشْتَرٍ واحدٌ فقطْ، ولكنَّهُ أبقى على هؤلاء الوكلاء في مكاتبَ مختلفةٍ؛ ليبقي على التنافس بينهم. حين أتت الأخبار لهؤلاء الرجال، زاغتْ أعينهم، وازدادتْ حرارة أصابعهم قليلًا، فكّر كلٌّ منهم في أنَّ رئيسهم لا يمكن أن يعيش للأبد، وأنَّ واحدًا منهم يومًا ما لابُدَّ وأن يأخذ مكانَهُ. فكَّرَ كلٌّ منهم كيف يُمكنُهُ مع بعض رأس المال أن يبدأ مِن جديدٍ.

غدتْ كلُّ الناس مهتمةً بكينو: هؤلاء الذين لديهم أشياء يبيعونها، والذين لديهم فضولٌ ليعرفوا كل التفاصيل. لقد وجد كينو لؤلؤة العالم. امتزجتْ روح اللؤلؤة بروح الرجال، وترسب في النفوس بقايا ظلامٍ غريبٍ. أصبح كلُّ رجلٍ فجأةً ذا علاقةٍ بلؤلؤة كينو، ظهرتْ لهم في أحلامهم، أفكارهم، مشاريعهم، خططهم، مستقبلهم، أمانيهم، احتياجاتهم، شهواتهم، رغباتهم جميعًا. وأصبح الشخص الوحيد الذي يقف في طريقهم إليها هو كينو. لقد كان كينو -وبطريقةٍ غريبةٍ وغير مفهومةٍ- عدوَّ كلِّ رجلٍ في البلدة. أثارت الأخبارُ شيئًا أسودَ وشريرًا وبلا نهايةٍ في البلدة. قطرانٌ أسودُ يُشبه سمَّ العقرب، يُشْبِهُ شعور الجائع الشره عندما يشمُّ رائحة الطعام، أو مثل الشعور بالوحدة بعد أن تنتهي قصَّةُ

حُبٍّ. بدأتْ منابع السم في جنبات البلدة في ضخِّ الحقد والغلِّ. ولقد بدأت البلدةُ تنتفخُ وتمتلئُ بهذا الحقد.

ولكن كينو وجوانا لم يكونا على علمٍ بهذه الأشياء. كانا سعداء، ويشعران بالإثارة والفرح، وظنّا أنَّ الجميع يشاركهما سعادتهما. جوان توماس وأبولونيا فعلا ذلك، لكنهما في النهاية كانا جزءًا مِن هذا العالم أيضًا. في الظهيرة، عندما نزلت الشمس وراء جبال شبه الجزيرة لتغتسل في مياه البحر الممتد، جلس كينو مقرفصًا داخل منزله، وجوانا جواره، بينما كان منزلهم الدغلي مزدحمًا بالجيران. حمل كينو اللؤلؤة في يَدِهِ، كانت دافئةً، بدتْ وكأنها ممتلئةٌ بالحياة؛ وموسيقى اللؤلؤة تمتزج مع موسيقى الأُسْرَة، وكلٌّ منهما تجعل الأُخرى أكثر جمالاً. نظر الجيران إلى اللؤلؤة وهي في يد كينو، وتساءلوا مندهشين: كم مِن الحظ يمكن أن يأتي للمرء يومًا ما!

جوان توماس الذي كان جالسًا القرفصاء على يمين كينو؛ لأنه أخوه، سأله: «ماذا سوف تفعل الآن بعد أن أصبحت رجلًا غنيًّا؟».

نظر كينو إلى لؤلؤته، وأخفضتْ جوانا نظرها، ورتّبت شالها؛ لتخفي به وجهها فلا يرى

أحدٌ مِن الجيران ملامحها وانفعالاتها التي بدتْ ممتلئةً بالشعور بالإثارة والفرح. تشكّلت الصور والخيالات التي أتت لكينو على سطح اللؤلؤة الذي كان يعكس الضوء لدرجةٍ جعلته يبدو مُتَّقِدًا. رأى كينو في اللؤلؤة أحلامه، وكأنها أمرٌ مُسلَّمٌ بِهِ. رأى جوانا وكويوتيتو وهو نفسه

راكعين أمام المذبح الـمُقدَّس في الكنيسة، والقس يزوجهما بعد أن أصبح في استطاعتهما أن يدفعا مِن أجل ذلك. قال كينو بهدوءٍ: «سوف نتزوج في الكنيسة».

في اللؤلؤة، رأى كينو ماذا سيرتدون حينها -جوانا في شالٍ وتنورةٍ جديدين، وفي قدميها يستطيع كينو أن يرى حذائين. لقد كان هذا كله في اللؤلؤة -كانت الصورة جليَّةً حقًا. هو نفسه كان يرتدي ملابسَ بيضاءَ جديدةً، يحمل قُبَّعةً جديدةً أيضًا -ليست مِن القش، لكنها مِن صوفٍ أسودَ جيِّدٍ-، هو أيضًا كان يرتدي حذاءً -وليس صندلاً، ولكن حذاء برباطٍ. أما كويوتيتو فكان يرتدي بذلةً زرقاءَ لقبطانٍ في البحرية الأمريكية، وقُبَّعةً صغيرةً كالتي يرتديها قائدُ يختٍ مثل الذي رآه كينو عندما جاءت سفينةٌ أمريكيةٌ إلى المصب. كلُّ هذه الأشياء رآها كينو في اللؤلؤة المتوهجة، ثُمَّ قال: «سوف نشتري ملابسَ جديدةً».

ارتفعتْ موسيقى اللؤلؤة كجوقةٍ مِن الأبواق في أُذُنَيْهِ.

وعلى السطح الرماديِّ الجميل للؤلؤة أتتْ أشياءُ أُخرى، كان يحتاجها كينو، بينما كانت في الماضي مِن المستحيل أن يحصل عليها، مثل: رمحِ صيدٍ جديدٍ بدلًا مِن الذي فُقِد منذ عامٍ، رمحٌ جديدٌ مِن الحديد بجرسٍ في نهايته عند المقبض. بعدها، كان هناك ما يُشبه القفزة في خياله، لقد كانت قفزةً مِن الصعب على عقله أن يفعلها لو لم يكن قد وجد اللؤلؤة. لقد فكَّر في أن يمتلك بندقيةً، لم لا؟! طالما أصبح غنيًّا. رأى كينو صورته على سطح اللؤلؤة يمسك ببندقية «وينشيستر». لقد كان أكثر أحلام اليقظة جموحًا وبهجةً. تحرَّكتْ شفتاه بتردُّدٍ وهو ينطقُهَا: «بندقيةٌ، ربما أريد أن

أمتلك بندقيةً».

لقد كانتْ كلمة البندقية هي التي حطَّمت حواجز الخيال. إنَّ هذا الأمر مستحيلٌ، وإذا كان في استطاعته أن يفكِّر في امتلاك بندقيةٍ، ستنفتح الآفاق، ويمكنه أن يرغب بقوةٍ في أيِّ شيءٍ. لهذا يُقال دائمًا إنَّ البشر لا يشعرون بالرضا؛ فكلما أعطيتهم شيئًا، سيرغبون في أشياءَ أُخرى. وهذا ما يجده الناس حطًّا مِن القدر، ولكنها مع ذلك، هي واحدةٌ مِن أعظم المواهب التي يمتلكها الجنس البشري، وهي واحدةٌ مِن تلك الصفات التي جعلتْهُ أسمى مِن الحيوان الذي يشعر بالرضا بما لديه مهما كان.

كانت موسيقى اللؤلؤة تصدحُ في انتصارٍ في وجدان كينو كله. طمحتْ جوانا في كلِّ الذي قاله، وعيناها مثبتتان على كينو، مفتوحتان على اتساعهما تراقب شجاعة خياله. قوةٌ كهربيةٌ سَرَتْ في جسده الآن ،ولم تعدْ هُناك أيُّ حدودٍ لخياله. في اللؤلؤة، رأى كويوتيتو يجلس إلى طاولةٍ صغيرةٍ بحجرة الدراسة، كما لو أنَّ في إمكانه أن يراه الآن للتو يعبر الباب المفتوح. كان كويوتيتو يرتدى سترةً، ذات ياقةٍ بيضاءَ، وربطةَ عنقٍ حريريةً. رأى كويوتيتو يكتب على ورقةٍ بيضاءَ كبيرةٍ. نظر كينو إلى جيرانه والحماس يشتعلُ في عنيه:

«سوف يذهب ولدي إلى المدرسة».

قالها، وصَمَتَ الجيران تمامًا. حَبَسَتْ جوانا أنفاسها بحدَّةٍ، ولمعتْ عيناها وهي تشاهده. نظرتْ سريعًا لأسفل حيث كويوتيتو نائمًا بين ردفيها لترى إن كان هذا ممكنًا.

كان كينو يرى هذه الأشياء، وكأنها نبوءةٌ.

«ابني سوف يقرأ ويفتح الكتب، ابني سوف يكتب، سوف يعرف الكتابة. ابني سوف يعرف الأرقام. وهذه الأشياء سوف تجعلنا أحرارًا. لأَنَّهُ سيعرف. سوف يعرف، ومِن خلاله سوف نعرف».

وفي اللؤلؤة، رأى كينو نفسه وجوانا يجلسان مقرفصينِ بالقرب مِن حفرة الموقد، بينما يقرأ كويوتيتو في كتابٍ عظيمٍ.

«هذا ما ستفعله اللؤلؤة».

قالها كينو. ولم يكن أبدًا قد قال مِن قبل الكثير مِن الكلمات والجمل المترابطة في حياته. وفجأةً خاف كينو مِن حديثه. أغلق يده على اللؤلؤة، قاطعًا خروج الضوء المنعكس مِن عليها.

لقد كان كينو خائفًا. لقد قال: «سوف أفعل» دون أن يعرف كيف سيفعل ذلك.

أدرك الجيران الآن أنهم يشهدون أحداثَ معجزةٍ عظيمةٍ. أدركوا أنَّ هذه اللحظة -ومنذ أن وجد كينو اللؤلؤة- قد أصبحت تاريخًا في حياتهم، وأنهم سوف يكرِّرون روايتها لسنواتٍ عديدةٍ قادمةٍ. سوف يعيدون الحديث مَرَّةً بعد أُخرى حول كيف كان ينظر كينو، وماذا قال، وكيف لمعت عيناهُ. سوف يقولون لقد تحوَّل إلى شخصٍ آخرَ. بعض القوة أتته، وبدأ تأثيرها يظهر عليه. أرأيتَ أيَّ رجلٍ عظيمٍ قد أصبح عليه حاله الآن! لقد كنتُ شاهدًا على بداية كلِّ ذلك بنفْسي.

ولو أنَّ كلَّ ما خطط له كينو لم يصلْ بِهِ إلى شيءٍ، نفس هؤلاء الجيران سوف يقولون: «في تلك اللحظة بدأ الأمر، الحماقة والجنون تحكَّما فيه، فتحدَّث بكلماتٍ حمقاءَ. فليحفظنا الرب بعيدًا عن مثل هذه الأشياء. نعمْ، لقد عاقب الرب كينو؛ لأنه تمرَّدَ على الطريقة التي تسير بها الأمور. أترى ما أصبح عليه أمرُهُ الآن! لقد رأيتُ كلَّ هذا بنفْسي مِن البداية، كنت شاهدًا عليه عندما تخلى الله عنه».

نظر كينو إلى يده، مفاصلها المصابة المنغلقة بإحكامٍ الآن، والتي ضربت البوَّابة هذا الصباح.

أتى الغسق. طبّقت جوانا شالها حتى يصبح وسادةً تحت رأس الرضيع، ثم ذهبتْ إلى حفرة الموقد، وأشعلتْ بعض الفحم، وكسّرتْ فوقه القليل مِن الأغصان؛ حتى تظلَّ النيران مشتعلةً لوقتٍ أطولَ. تراقصتْ ألسنة اللهب القليلة على أوجه الجيران. كانوا يعلمون أنهم يجب عليهم أن يذهبوا لتناول عشائهم هم أيضًا، لكنهم كانوا مُتردِّدين في الرحيل.

حل الظلام داخل المنزل، ورمت النار التي أشعلتها جوانا بظلال الجميع على حائط الأجمة، في الوقت نفْسه، كان الهمس ملحوظًا، يتنقّل مِن شخصٍ إلى آخرَ، ومِن فَمٍ إلى آخرَ: «الأب آتٍ. القسُّ آتٍ». خلع الرجال قُبَّعاتهم، وتراجعوا عند الباب، وجمعت النساء شالاتها؛ لتغطي بها جزءًا مِن وجوههن، ونظر جميعهن إلى الأرض احترامًا. وقف كينو وأخوه جوان توماس. أتى القس -رجلٌ أشيبُ كبيرٌ في السن، تبدو على بشرته الشيخوخة، عيناهُ صغيرتانِ حادتانِ. أطفالٌ؛ هكذا كان يرى سلالة كينو، وهكذا كان يعاملهم، كالأطفال.

قالها القس بهدوءٍ: «كينو، لقد سُمِّيتَ باسم رجلٍ عظيمٍ، وأَبٍ عظيمٍ للكنيسة».

قالها بطريقةٍ تبدو معها، وكأَنَّهُ يمنحه البركة.

«الرجل الذي تحمل اسمَهُ كان يَهدي الناس هنا إلى الإيمان، وشّذب عقولهم ، ألا تعلم ذلك؟ الأمر مُدوَّنٌ في الكتب».

نظر كينو سريعًا لأسفل، إلى كويوتيتو، حيث كان موضوعًا على شال جوانا.

يومًا ما، قالها في عقله، سيعرف ابني ما هي الأشياء المكتوبة في الكتب وما هي الأشياء التي ليست كذلك.

كانت الموسيقى قد غابت عن عقل كينو، ولكن الآن، وببطءٍ، ظهرتْ موسيقى الصباح خافتةً، موسيقى الشر، موسيقى العدو، أخذتْ تبرزُ في أُذُنِهِ، ولكنها كانت ضعيفةً هي أيضًا وخافتةً. نظر كينو إلى جيرنه ليرى أيًّا منهم يمكن أن يكون حاملًا لشَرٍّ أتى بهذه الموسيقى إليه.

عاد القس ليتكلم مِن جديدٍ: «لقد عرفتُ أنك وجدتَ ثروةً عظيمةً، لؤلؤةً عظيمةً».

فتح كينو يده، وأظهر اللؤلؤة، حدّق القس لبعض الوقت فيها متأملًا حجمها وجمالها، ثُمَّ قال: «أتمنى أن تجعلك هذه الثروة تتذكر أن تشكر الرب يابني؛ لأنه هو الذي منحك هذا الكنز، ولتصلِّ مِن أجل أن يرشدك في المستقبل».

هز كينو رأسه بصمتٍ، ولكن جوانا هي مَن تكلمت الآن بلطفٍ: «سوف نفعل يا أبتي. سوف نتزوج في الكنيسة، كينو قال ذلك». ثم نظرتْ إلى الجيران؛ مِن أجل أن تحصل على تأكيدٍ لكلامها منهم، فهزوا رؤوسهم مؤكدين بطريقةٍ رسميةٍ.

قال القس: «إنه لَأمرٌ يُسعدني أن يكون أول ما فكرتما فيه هو أمرٌ جيِّدٌ كهذا. فليباركم الرب يا أبنائي». التفَّ بعدها، فأفسح الناس له الطريق لِيَمُرَّ، وغادر سريعًا.

ولكن يد كينو أغلقتْ بقوَّةٍ على اللؤلؤة مِن جديدٍ، وفي عينِهِ نظرةُ مَن يشعر بالريبة، فأغنية الشر كانت تصدحُ الآن في أُذُنَيْهِ ضدَّ موسيقى اللؤلؤة.

تفرّق الجيران، وذهب كلٌّ منهم إلى منزله. جلست جوانا مقرفصةً قبالة النار، واضعةً إناءَها الفخاري وبه حبّات الفول مِن أجل سلقها. اتجه كينو إلى الباب، ونظر إلى الخارج. كما هو معتادٌ، كان في استطاعته أن يشمَّ الدخان المتصاعد مِن حفرة الموقد داخل كلِّ منزلٍ، كان في استطاعته أن يرى النجوم الغائمة، يشعر برطوبة هواء الليل، فغطَّى أنفه ليحميها. أتى الكلب النحيل إليه مَرَّةً أُخرى. عندما بدا أن كينو سيوجِّه نظره إليه، لم يَرَهُ. لقد كان قد اخترق أفق البرد، الوحدة في العراء. شعر كينو أيضًا أنه وحيدٌ، وبلا حمايةٍ، أصوات الصراصير، والضفادع بدتْ وكأنها حاملةٌ لنغمة الشَّرِّ هي أيضًا. ارتعش كينو قليلًا، فلفّ دثاره بإحكامٍ أكبرَ على أنفه. كان لا يزال يحمل اللؤلؤة في يَدِهِ، مُمسكًا إيَّاها بإحكامٍ في راحة كفِّهِ. كان ملمسها دافئًا وناعمًا.

خلفه، سمع صوت يَدَيْ جوانا تربت على الكعك قبل أن تضعه في لوح الطهي الفخاري. شعر كينو أن كلَّ الدفء والأمان الذي قد تحظى به أسرته، هو على عاتقه الآن. أتتْ موسيقى الأُسْرَة مِن خلفه كصوت قطَّةٍ صغيرةٍ. ولكن الآن، وبافتراض ما سيصبحُ عليه حاله في المستقبل، أصبح في إمكانه أن يخلق هذا الأمان. كانتْ خُطَّتُهُ لذلك هو أمرٌ بدا، وكأنه حقيقةٌ واقعةٌ. مثل الأشياء التي يمكن رؤيتها واختبارها. بمجرَّدِ أن توضع الخطة، ويمتلئ بها كيانه، تصبح حقيقةً مثل بقية الحقائق؛ فلا يمكنُ أن تُدمَّر، ولكن مِن السهل أن تهاجمها. لقد أصبح مستقبل كينو واقعًا الآن، ولكن دعم واستمرار هذا المستقبل سيواجه قوًى أُخرى، سترغبُ في تدميرِهِ. وهذا ما كان يعرفه كينو. لذا، كان عليه أن يعدَّ نفْسه لمواجهة هذه الضربات؛ وهو كان يعلم ذلك أيضًا. فالآلهة لا تحبُّ خطط الإنسان. كما أنها لا تحبُّ النجاح، إلا إذا كان عن طريق الصدفة. كينو كان يعلم ذلك، كان يعلم أنَّ الآلهة ستحاول الانتقام مِن الإنسان لو حقق النجاح مِن خلال جهدِهِ وخطتِهِ.

نتيجة لذلك، كان كينو خائفًا مِن الخطط، ولكنَّهُ في الوقت نفْسه كان لديه واحدةٌ، ولا يمكنُهُ أن يُدمِّرها، أو يتراجع عنها. وما كان عليه سوى مواجهة الهجوم المتوقَّع؛ لقد كان كينو مستعدًا لأن يكون أكثر قوةً وصلابةً في مواجهة هذا العالم. عيناهُ وعقله كان يمكنهما أن يتلمّسا الخطر قبل أن يظهر.

بينما كينو واقفٌ عند الباب، رأى رجلينِ يقتربان. أحدهما يحمل مصباحًا يضيءُ الأرض عند قدميهما. دخل الرجلان عبر سياج الأجمة

المحيط ببيت كينو مُتجهين إلى باب المنزل. رأى كينو أن أحدهما هو الطبيب، والآخر كان الخادم الذي قد فتح البوَّابة في الصباح. عاد الشعور بالألم إلى مفاصل يد كينو المصابة عندما رآهما.

قال الطبيب: «لم أكنْ هُناك عندما أتيتَ في الصباح. ولكن الآن، وفي أول فرصةٍ، أتيتُ لأرى الرضيع».

وقف كينو في مدخل الباب، مانعًا أيَّ فرصةٍ لدخولهما. كانت الكراهية والغضب يتطايرانِ شررًا مِن عينيه؛ والخوف أيضًا، فمئات السنين مِن القهر والاستعباد لقوم كينو على يد قوم الطبيب تركتْ أثرًا عميقًا داخله.

«الرضيع بخيرٍ الآن، قد تعافى تقريبًا» قالها باقتضابٍ.

ابتسم الطبيب، ولكنَّ عينيه في مقلتيه الممتلئتين قليلاً لم تبتسما.

قال: «أحيانًا يا صديقي، يكون للدغة العقرب تأثيرٌ غريب الأطوار. يظهر تحسنًّا، ثم ودون تحذيرٍ- بووف!».

وضغط على شفتيه صانعًا انفجارًا صغيرًا؛ ليظهر كيف يمكن أن يحدث ذلك سريعًا، ثم أظهر حقيبةَ طبيبٍ سوداءَ صغيرةً، والتي كانت خاصَّةً بِهِ في ضوء الكشَّاف أمام كينو. كان يعلم أنَّ سلاسة كينو يحبُّون أدواتِ أيَّ حرفةٍ، ويثقون بها.

أكمل الطبيب حديثَهُ بنبرةٍ هادئةٍ: «أحيانًا، يكون هناك قدمٌ قد شُلَّت، عينٌ أصابها العمى، أو عودةٌ سيئةٌ للسم. أووه. أنا أعلم لدغة العقرب يا صديقي، ويمكنني معالجتها».

شعر كينو بالغضب والكراهية يمتزجانِ بالخوف.

لم يكنْ كينو يعلم أيَّ شيءٍ، ورُبَّمَا يكون الطبيب على علمٍ. لم يستطعْ كينو أن يأخذ فرصةً للمقارنة وتأليب الأمر بين جهله المؤكد أمام احتمالية أن يكون الطبيب على معرفةٍ. لقد أُوقِع في الفخ كما حدث دائمًا مع قومِهِ، وربما سيستمرُّ هذا الأمر، كما يعتقد، حتى يمكنهم أن يصبحوا على يقينٍ مِن الأشياء الموجودة حقيقةً في الكتب وغير الموجودة. لم يستطعْ كينو أن يأخذ الفرصة أبدًا لا في الحياة عامَّةً، ولا أمام سلامة ابنه كويوتيتو. تنحَّى كينو في النهاية جانبًا، وترك الطبيب ورَجُلَهُ يدخلان كُوْخَهُ.

قامت جوانا مِن أمام حفرة الموقد، مُتراجعةً عن مكانها أثناء دخول الطبيب، وغطَّتْ وجه الرضيع بشراشفَ شالها. عندما ذهب الطبيب تجاهها، فاتحًا يديه لأخذ الرضيع، أحكمتْ جوانا يديها، وضمّتْ طفلها إليها، ناظرةً إلى كينو، بينما هو واقفٌ، وألسنة النار تتقافز أمام وجهه.

أومأ لها كينو. بعدها فقطْ، أمكنها أن تتركَ الطبيب يأخذ الرضيع مِن بين يديها.

«قرِّبْ ضوء الفانوس»!

قالها الطبيب لخادمه، الذي أطاع الأمر فورًا. أخذ الطبيب يبحث للحظةٍ عن موضع الإصابة في كتف الرضيع. بدا عليه التفكير لوهلةٍ، ثم رفع جفن الرضيع؛ ليفحص عينيه. هزّ رأسه، بينما كويوتيتو يقاومه.

«الأمر كما ظننتُ، تراجع السم لبعض الوقت، وسوف يهاجمُهُ قريبًا. تعال، وانظر»!

وأمسك الطبيب بجفن الرضيع.

«أترى؟ إنها زرقاء».

نظر كينو بقلقٍ، فوجدها زرقاءَ بالفعل. ولكنَّهُ لم يكنْ يعلم إن كانت دائمًا زرقاء أم لا. ولكنَّ الفخّ كان قد نُصِب. ولم يكنْ في استطاعتِهِ أن يحصل على أيِّ فرصةٍ للهرب.

ترقرقت مُقْلَتَا الطبيب الصغيرتان: «سوف أُعطيهِ شيئًا؛ لمحاولة تقليل أثر السم».

قالها، ثم أعطى الرضيع لكينو. أخرج مِن حقيبتِهِ زجاجةً صغيرةً بها مسحوقٌ أبيضٌ وكبسولةٌ مِن الجيلاتين. ملأ الكبسولة بالمسحوق، ثم أغلقها. ثم بعد ذلك وحول الكبسولة الأولى، أحكم إغلاق كبسولةٍ ثانيةٍ. عمل بعدها بحذقٍ شديدٍ، حيث أخذ الرضيع، وضمّ شَفَتَهُ السُّفلى، فاتحًا الفم بأصابعه البدينة ووضع الكبسولة بعيدًا داخل فم الرضيع، حيث لا يتمكَّن مِن أن يلفظها، ثم التقط مِن الأرض بعض شراب «البالكي»، وأعطى كويوتيتو شربةً منه، وبذلك كان قد أنهى الأمر. نظر ثانيةً في عينَي الرضيع، وزمَّ شفتيه، وبدا أنه يفكِّر.

في النهاية، أعطى الطبيب الرضيع لجوانا، ثم التف إلى كينو: «أظن أن السم سوف يهاجمه في غضون ساعةٍ. ربما يمكن للدواء أن يحمي الرضيع، ولكنني سآتي في خلال ساعة. ربما أستطيع أن أكون هنا في الوقت المناسب لإنقاذه».

أخذ نَفَسًا عميقًا، وخرج مِن الكوخ متبوعًا بخادمه حاملاً المصباح.

أخذتْ جوانا الرضيع، وغطّته بشالها. حدّقت فيه بقلقٍ وخوفٍ. جاء إليها كينو، ورفع شالها ناظرًا إلى الرضيع. حرّك يده إلى حيث جفن كويوتيتو لينظر إلى ما تحته. بعدها فقطْ رأى أنَّ اللؤلؤة لا تزالُ في يَدِهِ. فذهب إلى صندوق المثبّت في الحائط، وأخرج منه قطعة قماشٍ باليةٍ. لفَّ اللؤلؤة في الخرقة، ثم توجه لأحد أعمدة المنزل حفر قليلاً بأصابعه في الأرض المتّسِخة، ثُمَّ وضع اللؤلؤة الملفوفة بالخرقة في الحفرة، وغطَّاها مِن جديدٍ مُتعمِّدًا التضليل حول موضعها. ثُمَّ اتجه بعدها إلى حفرة الموقد، حيث كانت جوانا جالسةً مقرفصةً تراقبُ وجه الرضيع.

عاد الطبيب إلى منزله؛ جالسًا في كُرْسِيِّهِ، ناظرًا إلى ساعته. جِيءَ إليه بالعشاء: قليل مِن شراب الشيكولاتة، والكعك المـُحلى والفاكهة. حدَّق في الطعام بعدم اقتناعٍ إن كان راغبًا حقًّا في الأكل.

في منازل الجيران، كانت الحكايةُ التي تقود كل المحادثات لوقتٍ طويلٍ بين الناس على الملأ وفي السر هي أن يعرفوا إلى أيِّ شيءٍ سوف تسير الأمور مع كينو.

تحدث الجيران كثيرًا عن كم هي لؤلؤةٌ كبيرةٌ. اتّخذت هيئاتهم انفعالاتٍ قويةً، مشيرين بأيديهم في الهواء، مُظهرين كم تبدو جميلةً. مِن الآن، سوف يرغبون في مشاهدة كينو وجوانا عن قربٍ؛ ليروا إلى أيِّ شيءٍ سوف يقودُهُمَا الثراءُ الذي أتى إليهما. أسيغيِّرُهُمَا كما يفعل دائمًا بعقول الناس جميعًا؟ الجميع كان يعلم مثلًا لماذا أتى الطبيب. لم يكن رجلاً جيدًا في الادعاء. كان الأمر مفهومًا تمامًا.

في الخارج، حيث مصب النهر، كان هنالك سربٌ مِن الأسماك الصغيرة تتلألأُ تحت الماء، وتكسر سطحه الهادئَ، هاربةً مِن سرب أسماكٍ أكبرَ يُحاول أن يلتهمها. وفي المنازل الدغلية، كان في استطاعة كينو وقومه أن يميِّزوا بين صوت حركة الأسماك الصغيرة، وخبطات الأسماك الكبيرة. ارتفعتْ رطوبة الجو فوق الخليج مُتسرِّبةً إلى ما بين الشجيرات والصبّار والشجرات الصغيرة، تاركةً قطرات ماءٍ مُملَّحٍ عليها. وفئران الليل تُخربش في الأرض، بينما الصقور تسعى لاصطيادها. وهذا كله كان يجري في شيءٍ مِن الصمت المحيط.

أتى الكلب الأسود النحيل ذو البقع البرتقالية الصفراء حول عينيه جوار منزل كينو، ونظر إلى الداخل. هزّ قدميه الخلفيتين عندما نظر إليه كينو، ثم تنحَّى بعيدًا، عندما أبعد كينو عن عينيه. لم يدخل الكلب إلى المنزل، ولكنه شاهد كينو، وهو يأكل بنهمٍ حبَّات الفول مِن الطبق الفخاري، ماسحًا إيَّاهُ عن آخرِهِ بفطيرة الذرة، ثم شرب بعد ذلك بعض «البالكي».

كان كينو قد انتهى مِن طعامِهِ، ويلفّ سيجارةً عندما صاحت جوانا: «كينو». حملق فيها، ثم قام، وذهب إليها بسرعةٍ عندما رأى خوفًا في عينيها. وقف بجانبها، نظر إلى الرضيع بين يديها، ولكن الضوء كان ضعيفًا. ركل بعض الأغصان في حفرة الموقد فأضاءتْ بشدَّةٍ، استطاع أن يرى وجه كويوتيتو الذي كان مُهتاجًا ويغمغم، وهناك خطٌّ سميكٌ قليلٌ مِن لعابه يسيل مِن بين شفتيهِ.

بدأت تقلصات عضلات المعدة تصبح أقوى، وبدا الرضيع مريضًا للغاية.

ركع كينو جوار زوجته. «إذن، الطبيب كان يعلم.» قالها لجوانا، ولكنه كان يبدو وكأنه يقولها لنفْسه قبل أن تكون لزوجته، لعقله الذي كان مرتابًا وهو يتذكر المسحوق الأبيض. أخذتْ جوانا تتحرَّكُ مِن جانب المنزل إلى جانبه الآخر، وتأتي بصوتٍ مسموعٍ أُغنيةُ العائلة، كما لو أنها يمكن أن تدرأ الخطر، بينما الرضيع يتقيّأُ ويذبلُ بين يديها. الريبة الآن داخل كينو أصبحتْ تجاه كلِّ شيءٍ. خفقتْ موسيقى الشر في رأسه، حتى أنها لم تُبْقِ أثرًا لأغنية جوانا.

أنهى الطبيب مشروب الشيكولاتة، وقضم قطع الكعك الصغيرة الـمُحلَّى بالسُّكَّر. مسح يده في منديلٍ، ونظر إلى ساعته، قائمًا مِن مكانه، آخذًا حقيبته الصغيرة، ليعود إلى بيت كينو.

تنقّلت أخبار مرض الرضيع سريعًا بين الأكواخ. فالمرض هنا هو أكبر عدوٍّ بعد الجوع بالنسبة للفقراء. قال البعض همسًا قاصدًا الطبيب: «الحظ أحيانًا -كما ترى- يأتي بأصدقاء لدودين».

وهزّوا رؤوسهم، وقاموا ذاهبين إلى منزل كينو. تحرك الجيران بسرعةٍ، وهم يحمون أنوفهم مِن الهواء السام في ظلام الليل، حتى ازدحموا عند منزل كينو ثانيةً. وقفوا، وحملقوا، ثم قالوا القليل مِن التعليقات عن الحزن الذي يأتي وقت الفرح، قالوا إنَّ كلَّ الأشياء في يد الرب. جلست النساء العجائز مقرفصاتٍ جوار جوانا، يحاولن أن يعطوها العون، لو كنَّ

قادراتٍ على ذلك، أو يخفِّفن عنها الألم، لو لم يستطعن المساعدة.

أسرع الطبيب إلى الداخل، ومِن ورائه خادمه. أبعد النساء العجائز عن المكان، كأنهنَّ دجاجٌ. أخذ الطفل، وفحصه، وقاس درجة حرارة رأسه. «السم بدأ في العمل مِن جديدٍ. أعتقد أنه يمكنني هزيمتُهُ. سوف أفعل كل ما أستطيع».

قالها الطبيب، وطلب بعض الماء، وفي الكأس، وضع ثلاث قطراتٍ مِن الأمونيا، وفتح فم الرضيع عنوةً، وسكبها فيه. غمغم الرضيع، وبكى أثناء عملية المداواة تلك، شاهدتْهُ جوانا بعينين متتبعتَيْنِ دون أن ترفعهما عنه. تحدَّث الطبيب قليلًا بينما كان يعمل: «إنَّهُ لَمِنْ حسن الحظ بالتأكيد أن أكون على علمٍ بسم العقرب، وإلا»!

وهزّ كتفيه؛ ليريهما ماذا كان يمكن أن يحدث. ولكن كينو كان مرتابًا، ولم يستطعْ أن يبعد عينيه عن حقيبة الطبيب، وعن زجاجة المسحوق الأبيض داخلها. تدريجيًّا، هدأت التقلصات، واسترخى الرضيع تحت يَدَي الطبيب. تنهدَّ كويوتيتو بعدها بعمقٍ، وذهب في نومٍ عميقٍ، بعد أن أصبح تعِبًا من جرَّاء القيء.

وضع الطبيب الرضيع بين ذراعَيْ جوانا: «سوف يصبح أفضل الآن. لقد فزتُ بهذا القتال».

نظرتْ له جوانا حينها بإعجابٍ شديدٍ. أقفل الطبيب حقيبته في تلك اللحظة قائلاً: «متى تعتقد أنه يمكنك دفع مقابل هذا العلاج»؟ ولكن حتى هذه الجملة قالها الطبيب بلطفٍ.

«عندما أكون قد بعت لؤلؤتي، سوف أدفع لك».

سأل الطبيب بوجهٍ بدا عليه الاهتمام والمفاجأة: «لديك لؤلؤةٌ؟ لؤلؤةٌ جيدةٌ؟»

تدفَّقتْ مع نهاية هذا السؤال جوقة الجيران: «لقد وجد لؤلؤة العالم».

قالوها بصوتٍ عالٍ مُحرّكين أيديهم في الهواء؛ ليظهروا كم هي عظيمةٌ تلك اللؤلؤة.

«سوف يصبح كينو رجلاً غنيًّا، إنها لؤلؤةٌ لم يُكتبْ لأحدٍ مِن قبل أن يرى مثلها».

قالوها بصوتٍ مجعجعٍ، صاخبٍ وفوضويٍّ.

بدا الطبيب مُتفاجِئًا: «لم أكنْ قد سمعتُ بالأمر مِن قبل. هل تحفظ هذه اللؤلؤة في مكانٍ آمنٍ؟ ربما تودُّ أن أضعها لك في خزانتي»؟

انغلقت عينا كينو الآن، وبدتْ وجنتاهُ مشدودتين أكثرَ مِن ذي قبل: «هي في مكانٍ آمنٍ الآن. غدًا سوف أبيعها، ثم سأدفع لك».

هزّ الطبيب كتفيه، ولم تغادرْ عيناهُ عينَيْ كينو بعد. كان يعلم أنَّ اللؤلؤة مدفونة في مكانٍ ما في المنزل، وظنَّ أن كينو ربما ينظر للمكان حيث هي مدفونةٌ.

«سوف يكون الأمر مُخزيًا أن تترك اللؤلؤة تُسرق قبل أن يمكنك بيعها».

قالها الطبيب بينما كان يراقبُ عينَيْ كينو، وهي تنظر سريعًا وبشكلٍ لاإراديٍّ إلى الأرض قرب أحد أعمدة المنزل الدغلي.

عندما ذهب الطبيب، وعاد الجيران إلى منازلهم، متردِّدين غير راغبين في المغادرة، جلس كينو بالقرب مِن جمرات الفحم الملتهبة في حفرة الموقد، ينصتُ إلى أصوات الليل: مسحات خفيفة للأمواج على الشاطئ، نباح كلابٍ يأتي مِن بعيدٍ، صوت النسيم وهو يخشخش على سطح المنزل، الحديث الخافت للجيران في منازلهم في القرية. لم يكنْ قوم كينو قد اعتادوا أن يناموا طوال الليل على نحو مُستقرٍّ، فهم يستيقظون على فتراتٍ، يتحدثون قليلًا، ثم يذهبون إلى النوم مِن جديدٍ. بعد مُضِيِّ بعض الوقت على حاله هذا، قام كينو مُتَّجِهًا إلى باب منزله.

شمّ رائحة النسيم، واستمع إلى أصوات مرور الرياح بين الأجمة، بحث بعينيهِ بين العتمة عن موسيقى الشَّرِّ التي كانت تصدحُ في رأسه خائفًا، روحه كانت عنيفةً في ذلك الحين. بعد أن استكشف تفاصيل الليل بحواسه، ذهب إلى المكان الذي كان قد دفن فيه اللؤلؤة، جوار أحد أعمدة المنزل، حفر ليخرجها وجلبها إلى حصيرة نومه. تحت فِرَاشِهِ، حفر مَرَّةً أُخرى في الأرض المتسخة، ودفن اللؤلؤة، وغطَّاها مِن جديدٍ.

كانت جوانا جالسةً عند حفرة الموقد، تراقبُهُ بعينَيْنِ مُتسائلتَيْنِ، وعندما انتهى مِن دفن اللؤلؤة سألته: «مِمَّن تخافُ»؟

بحث كينو عن إجابةٍ صحيحةٍ، لكنَّهُ في النهاية قال: «مِن الجميع»!

شعر حينها وكأن صعوبةً ما قد أصبحتْ تُثقِل ظَهْرَهُ. رقدا بعدها جنبًا

إلى جنبٍ على حصيرة النوم. لم تضعْ جوانا الرضيع في صندوقه، بل كان مهده هذه الليلة بين ذراعيها؛ ثُمَّ غطَّتْ وجهه بشال رأسها، ونامت.

خمد الضوء المنبعث مِن جمرات حفرة الموقد. ولكنَّ عقل كينو كان يحترق مِن التفكير. أثناء نومه، حلم أن كويوتيتو يستطيعُ القراءة. هناك إذنْ واحدٌ مِن قومه سوف يخبره عن حقيقة الأشياء. في أحلام كينو، كان كويوتيتو يقرأ مِن كتابٍ ضخمٍ كمنزلهم، بحروفٍ كبيرةٍ كالكلاب، والكلمات تتقافز وتلعب بين صفحات الكتاب. ثُمَّ انتشرت العتمة فوق صفحات الكتاب. ومع الظلام أتتْ موسيقى الشَّرِّ مِن جديدٍ. تحرك كينو أثناء نومه، وعندما شعرت جوانا بذلك، فتحتْ عينيها في عتمة الليل الكاملة. استيقظ كينو بعدها وموسيقى الشَّرِّ تنبضُ في كل جسدِهِ، كان يرقد على حصيرة نومه في العتمة، بينما أُذُنَاهُ منتبهتانِ بشدَّةٍ.

ثُمَّ ومِن ركن البيت، أتى صوتٌ خافتٌ للغاية، لدرجةٍ تجعلك تظنُّ أنه مجرد صوتٍ داخليٍّ للأفكار أو تهيُّؤٍ. كان هناك حركةٌ ماكرةٌ ضئيلةٌ للغاية، لمسةٌ مِن قدمٍ على الأرض، صوتٌ ضعيفٌ للغاية لأنفاسٍ مكتومةٍ بشدَّةٍ. حبس كينو أنفاسه ليستمع، وشعر أنه وبغضِّ النظر عمَّا هنالك يقبع في الظلام داخل منزله، فهو يكتم أنفاسه أيضًا ليسمع. للحظةٍ، لم يأتِ أيُّ صوتٍ يأتي مِن ركن البيت الدغلي. فكر كينو حينها أنه ربما يكون قد تخيَّل أن هناك صوتًا. ولكن يد جوانا لمسته بشيءٍ مِن الحذر والخوف، ثم عاد الصوت مَرَّةً أُخرى. صوتٌ خافتٌ لأقدامٍ على أرضٍ جافَّةٍ، خربشة الأصابع على التربة.

تدفَّق في تلك اللحظة خوفٌ وحشيٌّ في صدر كينو. ومع الخوف يأتي الغضب والكراهية، كما يحدثُ له دائمًا. تسلّلت يد كينو إلى صدره حيث سِكِّينه مُعلَّقٌ في خيطٍ. انطلق بعدها مثل قطٍّ بريٍّ غاضبٍ، وقفز مهاجمًا الشيء المظلم الذي كان يعلم أنه في ركن المنزل. أمسك بملابس أحدٍ ما، فضربه بسِكِّيْنِهِ، ولكنَّهُ أفلتْ منه، فضربه ثانيةً، وشعر بسِكِّيْنِهِ يخترق الملابس. ثمَّ فجأةً أخذ ضربةً قويةً فوق رأسه، وتفجَّر الألم. بعدها كان هناك هرولةٌ وهروبٌ بصوتٍ خفيضٍ مِن خلال الباب، وخطواتٌ تجري، ثُمَّ صمتٌ.

شعر كينو بالدم يجري دافئًا على جبهته. استطاع أن يسمع جوانا تناديه: «كينو! كينو»!

كان الخوف ظاهرًا في صوتها. ثم غمرته البرودة سريعًا مثل الغضب، وقال: «أنا بخيرٍ. ذهب هذا الشيء».

تلمّس طريقه؛ ليعود إلى حصيرة نومه. كانت جوانا قد بدأتْ حينها في العمل على إشعال نارٍ. كشفتْ عن جمراتٍ مِن بين الرماد، وكسَّرتْ قطعًا صغيرةً مِن قش الذرة، فتراقصتْ ألسنةُ ضوءٍ صغيرةٌ عبر الكوخ. ثُمَّ ومِن مكانٍ خفيٍّ، جلبتْ جوانا شمعةَ صلاةٍ كنسيَّةً صغيرةً، بدا أنها مُستخدمةٌ مِن قبل. أضاءتْها مِن اللهب الضئيل، ووضعتْها فوق حجر الموقد. كانت تقومُ بذلك سريعًا، تُحدِّث نفْسها بصوتٍ أقرب للتمتمة، وهي تتحرَّك بما يجب أن تفعله. غمستْ طرف شالها في الماء، ومسحت الدم مِن على جبهة كينو التي أصبحت مكدومةً الآن.

«لا تقلقي، إنه لاشيء تقريبًا».

قالها كينو، ولكنَّ عينيه وصوته كان بهما مزيجٌ مِن الحدة والبرودة والكراهية والكآبة.

الآن ازداد التوتر والقلق داخل جوانا حتى وصلا لأقصى ما يكون، فقالت هامسةً بشفتينِ خائفتينِ: «هذا الشيء يجلب السوء لنا»!

بكتْ بصوتٍ مسموعٍ خشنٍ: «هذه اللؤلؤة وكأنها إثمٌ، خطيئةٌ. سوف تُدمِّرُنا».

وعلا صوتُ بكائِهَا الأجش: «دعنا نُلقها بعيدًا يا كينو. دعنا نحطّمها بين الصخور. دعنا ندفنها، وننسى مكانها. دعنا نلقها في البحر مجددًا. إنها تجلب السوء والشر. كينو، زوجي... إنها سوف تُدمِّرُنا».

وفي ضوء اللهب الضئيل، بدتْ عيناها وشفتاها ممتلئتين بالخوف. لكنَّ وجه كينو كان خاليًا مِن أيِّ انفعالٍ. عقله وإرادته كانتا عنيدتين: «هذه فرصتنا الوحيدة. ولدنا يجب أن يذهب إلى المدرسة. يجب أن يكسر هذا القالب الذي نعيش فيه».

بكت جوانا: «إنها سوف تُدمِّرُنا جميعًا؛ حتى ابننا».

«هُشش! لا تتحدثي بالمزيد. في الصباح سوف نبيع اللؤلؤة، وحينها سيذهب الشر، ولن يبقى سوى الخير. الآن، هُشش، زوجتي»!

نظر بعينينِ متجهمتينِ إلى ألسنة الضوء القليلة، وللمرة الأولى انتبه إلى أن سِكِّينَهُ لا يزال في يَدِهِ، رفع النصل، ونظر إليه. رأى خطًّا رفيعًا من

الدم على شفرته. للحظة بدا أنه سوف يمسح النصل في سرواله، ولكنه غمس السِّكِّين في الأرض، وكأَنَّهُ يُطهِّرُهُ.

مِن بعيدٍ، أتتْ أصوات صياح الديكة. أصبح الهواء أخفَّ الآن وأتى الفجر. حرّكتْ رياح الصباح مياه المصب، همستْ بأصواتٍ خافتةٍ، وهي تمرُّ بين أغصان أشجار المانجروف، وتكسّرت الأمواجُ القليلةُ على الشاطئ الصخريِّ بإيقاعٍ مُتزايدٍ كلما هبت الرياح. رفع كينو حصيرة النوم، ونبش ليُخرِج لؤلؤته. وضعها أمامه، وحدَّق فيها.

كانت اللؤلؤة تبرق جمالًا، يسقط ضوء الشمعة الصغيرة، وينعكس مِن عليها، تخادع عقل كينو بجمالها. كم هي ناعمةٌ، ورائعةٌ. وموسيقاها تأتي مِن قلبها -موسيقى تَعِدُ بالسعادة والبهجة، بالمستقبل والراحة، والأمان. ملمسها الدافئُ يَعِدُ بالحماية مِن المرض، هي بمثابة حاجزٍ أمام الإهانة والتحقير. هي بمثابة صدٍّ وغلقِ الباب أمام الجوع. وكلما حدّق فيها، ترتاح عينا كينو، وتهدأ ملامح وجهه. في سطحها النقيِّ، كان في إمكانه أن يرى ظل الشمعة الكنسية الصغيرة على اللؤلؤة منعكسًا على سطحها الناعم. امتلأتْ أُذُنُهُ مِن جديدٍ بالموسيقى الجميلة التي تأتيته عندما يكون تحت البحر. نغمة الضوء الأخضر المنتشر في قاع المياه. حملقتْ جوانا سرًّا في كينو. رأته يبتسم؛ ولأنَّ الاثنين بطريقةٍ ما هما الشيء نفْسه، ولهما الهدف نفْسه، فابتسمتْ هي الأُخرى.

ثُمَّ بدآ يومهما، ولديهما أملٌ.

(٤)

مِن المدهش فعلاً معرفة الطريقة التي تتواصل بها أجزاء هذه البلدة الصغيرة مع بعضها البعض. فكلُّ رَجُلٍ، وامرأةٍ، وطفلٍ رضيعٍ، يتواصل مع الآخرين فيها بشكلٍ واضحٍ ومعتادٍ. وإن لم يكسر المرء أيَّ حواجز أو لم يمارسْ شيئًا مختلفًا، إن لم يهددْ في أيِّ لحظةٍ انسيابية وسلامة الحياة في البلدة، لو أنَّ كلَّ واحدٍ ظلَّ بعيدًا عن كسر إيقاع تدفُّق الحياة فيها، يمكن لهذا المرء ألا يسمع به أحدٌ أبدًا بعد يغادر هذه الحياة. ولكن في الوقت نفْسه، اجعل رَجُلًا مِن البلدة يحاول أن يتخطَّى هذا الاعتياد والنمط المعتاد، يحاول أن يجتاز خطَّ الحياة الذي ارتاح له النَّاس هنا، وستجد كل أعصاب البلدة تطلقُ نفيرها مضطربةً متصلةً ببعضها البعض بامتداد كلِّ أجزائها. ستجدُ أنَّ شبكة النَّاس فيها يتواصلون مع بعضهم البعض في فعل مقاومةٍ لما يحدث.

وهكذا، في لا باز، كان قد عُرِف في كلِّ أرجاء البلدة، أن كينو سوف يبيع لؤلؤته اليوم. عُرِف الأمرُ بين الجيران في الأكواخ المجاورة، وبين صيَّادي اللآلئ؛ عُرِف الأمرُ بين البقَّالين الصينيين؛ عُرِف في الكنيسة، بين أطفال المذبح الـمُقدَّس الذين ظلّوا يتهامسون بالأمر، حتَّى تسلَّلتْ كلمةٌ منهم إلى الراهبات. الشحّاذون والمتشردون القابعون أمام الكنيسة علِموا بذلك، ومنذ ذلك الحين ظلّوا يتحدثون ويخططون لأن يكونوا حاضرين مِن أجل أن يأخذوا العُشر مِن ثمار الحظ التي تساقطتْ على كينو. عَرِف الأولاد الصغار بالأمر، وكانوا مُتحمِّسين لمشاهدة ما سيحدث. أما غالبية تجّار اللؤلؤ وبعد أن عرفوا بالثروة التي أتتْ إلى كينو فجأةً، كانوا مُستعدين صباح ذلك اليوم، جالسين في مكاتبهم،كلٌّ منهم بمفردِهِ في مكتبِهِ معه علبةٌ مخمليةٌ سوداءُ، وبين يَدَيْ كُلٍّ منهم لآلئ صغيرةٌ يلعب بها بين أصابعِهِ، ويتخيَّل نفْسه كجزءٍ مِن صورة هذا الحدث الضخم.

لقد كان مِن المفترض أن يتنافس تجَّار اللؤلؤ مع بعضهم البعض مِن أجل أن يظفر أحدهم بشراء اللآلئ مِن الصيَّادين. وقد كان الأمر كذلك مِن قبل. لكن هذه الطريقة كانت تؤدِّي في كثيرٍ مِن الأحيان إلى تبذيرٍ ملحوظٍ. ففي حماسة التنافس والمزايدة على لؤلؤةٍ جميلةٍ، يمكن أن يُدفع مبلغٌ كبيرٌ للغاية لأحد الصيَّادين مِن أجل الحصول عليها. لقد كان هذا خطأً لا يمكن التَّغاضي عنه. أما الآن، فقد أصبح هناك تاجرٌ واحدٌ فقطْ، وهناكَ مجموعةٌ مِن المكاتب والموظَّفين في الواجهة يعملون لصالحه. ومِن ثَمَّ، فالرجال الذين ينتظرون كينو في مكاتبهم يعلمون أيَّ سعرٍ سوف يُقدِّمُونه، وإلى أيِّ سقفٍ سوف يزايدون على بعضهم البعض، وما هي

الطريقة التي سوف يستخدمها كلُّ واحدٍ منهم. ومع أنَّ هؤلاء الرِّجَال لن يحصلوا على أيِّ فائدةٍ مِن هذه العملية أكثر مِن أجورهم المعتادة، إلا أنَّ الأجواء كانت تمتلئُ بالإثارة والتشوّق، وكأنَّها منافسةُ صيدٍ. فإنْ كانت وظيفةَ رجلٍ ما هي التقليل مِن سعر الشيء قدر الإمكان، فلابُدَّ أن يُحاول فعل ذلك بأقصى ما يمكن؛ لينجح فيه. لقد كان ذلك هو ما يجعل كلاً منهم يشعر بالمتعة والرضا، مثل أيِّ رَجُلٍ لديه نهمٌ تجاه ما يفعله؛ وهذا النهم هو ما يدفعه للقيام بعملِهِ على أفضل وجهٍ، ولا يقبلُ أقلَّ مِن ذلك، بصرف النظر تمامًا عن إنْ كان هناك أيُّ مُكافأةٍ سيحصلُ عليها، أيُّ فخرٍ، أيُّ كلمة ثناءٍ أو تقديرٍ. فتاجر اللؤلؤ هو تاجر لؤلؤٍ، وأفضلُ وأسعدُ ما يمكن أن يحدث لتاجر اللؤلؤ هو أن يشتري ما يريد بأرخص ثمنٍ ممكنٍ.

كانت الشمس حارَّةً ذلك الصباح، وقد ظهرتْ رطوبة الطقس في خيوط الضوء اللامعة المتذبذبة والمعلقة في الهواء فوق سطح مياه المصب والخليج. وبسبب ذلك، افتقدت الرؤية الوضوح الكافي، وامتدَّ طيف الهواء مُعلَّقًا حتى شمال البلدة، إلى الجبل الذي كان يبعد مائة ميلٍ تقريبًا، بمنحدراته العالية الـمُدثرة بشجر الصنوبر، والذي لم يكنْ ظاهرًا منه سوى قمته العالية التي ترتفعُ فوق ما يُشبه سياجًا طبيعيًّا مِن تلك الأشجار.

في صباح ذلك اليوم، اصطفت القوارب بمحاذاة الشاطئ؛ لم يذهب الصيَّادون مِن أجل البحث عن اللآلئ، فهناك الكثير مِن الأحداث التي لا يجب أن تفوتهم، عندما يذهب كينو لبيع لؤلؤته العظيمة.

في المنازل الدغلية بمحاذاة الشاطئ، جلس جيران كينو أطول مِن المعتاد أثناء تناولهم الإفطار. تحدَّثوا عمَّا سيفعلون لو وجدوا لؤلؤةً. قال أحدهم إنَّهُ سوف يُعطيها هديةً للبابا في روما. قال آخر إنَّهُ سوف يدفع لإقامة صلواتٍ مِن أجل أرواح عائلته لآلاف السنين. آخر قال إنَّهُ ربما يأخذ المال الذي سيأتي مِن وراء بيع اللؤلؤة، ويوزِّعُهُ على فقراء لا باز، وراح يُفكِّر في كلِّ الأشياء الجيدة التي مِن الممكن فعلها بأموال اللؤلؤة، كل العطايا، كل المنح التي يمكن أن يبذلها المرء لو معه المال لذلك. كل الجيران تمنَّوا ألا تُغيِّر الثروة المفاجأة كينو، ألا تجعل الرجل الغني منه يذهب في طريق الشر، والجشع، والكراهية؛ لأنَّ كينو كان رجلاً محبوبًا بينهم؛ وسوف يكون مِن العار لو دمّرته اللؤلؤة. «زوجته الطيبة جوانا وولده الجميل كويوتيتو. مِن المؤسف لو دمّرتهم اللؤلؤة».

بالنسبة لكينو وجوانا، كان هذا الصباح استثنائيًّا ومميزًا عن كلِّ صباحٍ آخر مرَّ عليهم طوال حياتهم؛ فقط يمكن مقارنته باليوم الذي وُلِد فيه كويوتيتو. إنَّهُ اليوم الذي سوف تنتسبُ إليه بقية الأيام، وتأخذ ترتيبها بالنسبة له. وهكذا يمكن أن يقولوا فيما بعد: «إن هذا الأمر كان قبل سنتين مِن بيع اللؤلؤة». أو «كان ذلك الحدث بعد ستَّة أسابيع مِن بيعنا للؤلؤة». لكن جوانا كانت تنظر إلى المسألة كلها بعين الحذر مُترقِّبةً ما يمكن أن يأتي مِن وراء ذلك كله. ألبستْ كويوتيتو ملابس مناسبةً للتعميد، حيث إنهم سيذهبون إلى الكنيسة لتعميده بمجرد أن يبيعوا اللؤلؤة، ويصبح لديهم المال مِن أجل ذلك. مشَّطت شَعرها، وضفَّرَتْهُ، وثَنَتْ طرفَيْ ضفيرتيها في عُقدتين بشرائطَ حمراءَ، وارتدتْ تنُّورة زواجِهَا. كانت

الشمس قد ارتفعتْ إلى ربع السماء عندما أصبحا جاهزينِ. ملابس كينو البيضاء الرثة والتي دائمًا ما كانت مُتَّسخةً، أصبحت الآن نظيفةً. كان هذا هو اليوم الأخير للملابس الرثة. مِن الغد، أو حتى بعد ظهر اليوم، ستذهب هذه الرثاثة، وسوف يكون لديه ملابسُ جديدةٌ.

شاهد الجيران كينو مِن بين الفراغات بين جدران منازلهم المشيدة مِن الأجمة. ظهر مرتديًا ملابسه، جاهزًا أمام بيته. لم يكنْ هُناك أيُّ قلقٍ حيال مصاحبتهم له ولجوانا وهما ذاهبانِ في طريقهما لبيع اللؤلؤة. كان مِن المتوقع أن يفعلوا ذلك. لقد كانت لحظةً تاريخيةً، وسيصيبهم الجنون بالتأكيد إن لم يذهبوا. كما أنَّ عدم ذهابهم سيُفهم في الغالب على أنه علامةٌ على عدم تمنِّي الخير.

لفّت جوانا شالها حول رأسها بحرصٍ، أمسكتْ بأحد طرفيه الطويلين تحت مرفقها الأيمن وجمعته بيدها؛ ليصبح كالأرجوحة الـمُعلَّقة تحت ذراعها. وفي هذه الأرجوحة الصغيرة، وضعتْ كويوتيتو كي يُصبحَ مَحميًّا، وفي الوقت نفْسه يمكنه أن يرى كلَّ شيءٍ؛ لعلَّهُ يتذكر ما سيحدث. وضع كينو قُبَّعَتَهُ الكبيرة المصنوعة مِن القشِّ فوق رَأْسِهِ، وتَحسَّسَهَا بِيَدِهِ؛ ليرى إن كان قد وضعها بشكلٍ صحيحٍ؛ ليس إلى الخلف أو إلى جانب رأسه كشابٍّ طائشٍ أو غير متزوِّجٍ أو غير مسؤولٍ، وليستْ أيضًا مُسطَّحةً كما يرتديها كبار السن، ولكن مائلةً قليلًا إلى الأمام لتظهر جدِّيَّةً وقوةً وشيئًا مِن العنف. لقد كان أمرًا هامًّا أن يُرى بقُبَّعة رأسه وهي مائلةٌ قليلًا إلى الأمام. وضع كينو صندله في قدميه، وأحكم إغلاقَهُ على كعبه. لفَّت اللؤلؤة في قطعةٍ قديمةٍ مِن جلد الغزال، ووضعتْها في سُرَّةٍ

جلديَّةٍ صغيرةٍ، ومِن ثَمَّ وُضِعت السرة في جيبٍ داخل قميص كينو. لفّ دثاره بحرصٍ، وأسقط أحد طرفيه كشريطٍ رفيعٍ على كتفه الأيسر. والآن أصبحا جاهزينِ.

خرج كينو مِن منزله وهو ممتلئٌ بالشعور بالثقة، وتبعتْهُ جوانا وهي تحمل كويوتيتو. وكلما سارا تجاه البلدة قاطعين الطريق المغتسل بماء المطر، التحق بهما الجيران، وقذفت البيوتُ بالنَّاس إلى الشارع، وتلفظت الأبواب بالأطفال. ولكنْ لجدية المناسبة، رجلٌ واحدٌ فقط هو مَن سار إلى جوار كينو. كان هذا الرجل هو أخوه، جوان توماس.

حذّر جوان توماس أخيه: «يجب أن تكون حذرًا، وتتأكد مِن أنهم لن يحتالوا عليك».

وافق كينو: «يجب أن أكون حريصًا جدًّا».

قال جوان توماس: «نحن لا نعلم ما السعر الذي يُدفع في الأماكن الأُخرى، كيف يمكننا أن نعرف السعر العادل، لو لم نعرفْ ما يدفعه تجّار اللؤلؤ في مكان آخر».

«هذا صحيحٌ. ولكن كيف يمكن أن نعرف؟ نحن هنا، ولسنا هناك»!

وكلما ساروا تجاه البلدة، ازداد الزحام مِن حولهم. استكمل جوان توماس في توتُّرٍ ظاهرٍ: «قبل أن نولد يا كينو، فكَّرَ مَن كانوا قبلنا في طريقةٍ ليحصلوا بها على أموالٍ أكثرَ مِن بيع لآلئهم. فكَّرُوا في أنه مِن الأفضل لو أنَّ لديهم وكيلاً يأخذ كل اللآلئ، ويذهب بها إلى العاصمة. وهناك يبيعها لهم، ويحصل على نسبةٍ مِن الربح».

هز كينو رأسه: «أعلم ذلك. إنَّها فكرةٌ جيدةٌ».

أكمل جوان توماس: «وقد وجدوا هذا الرجل بالفعل. وجمعوا لآلئهم، وجعلوه يمضي مِن أجل ما أرادوا. ولكنْ لم يَسمعْ أحدٌ عنه مَرَّةً أُخرى، وفُقِدت اللآلئ. ثم أتوا بِرَجُلٍ آخرَ، وقاموا بالشيء نفْسه، ولم يُسمعْ عنه أيضًا. ثُمَّ تخلوا عن الأمر برمته، وعادوا إلى ما كانوا عليه في الأيام القديمة».

«أعلم ذلك، سمعتُ أبانا يحكي هذه القصة. لقد كانت فكرةً جيدةً، ولكنها كانت ضدَّ الدين، القس قال ذلك بوضوحٍ. لقد كان فقدان اللآلئ عقابًا لهؤلاء الذين حاولوا أن يتركوا موقعهم في الحياة.

قال الأب بوضوحٍ: إنَّ كلَّ رجلٍ وامرأةٍ مثل الجندي، أُرسِل مِن قِبل الرب؛ ليحرس جزءًا مِن قلعة هذا الكون. بعضهم يكون مكانهم عند المتاريس، وبعضهم بعيدًا عن الأسوار، في العتمة. ولكنْ كلٌّ واحدٍ منَّا يجب أن يبقى مؤمنًا بموقعه، ولا يهرب منه، وإلاَّ ستكون القلعة مُعرَّضَةً للأخطار والاعتداءات التي تأتي مِن الجحيم».

رد جوان توماس: «لقد سمعتُهُ يقولُ هذه الموعظة في العديد مِن المرات. كان يقولها كل عام».

سار الأخوانِ قُدُمًا. ينظرانِ شذرًا بأعينهما، كما كان يفعلُ أجدادهما وأجداد أجدادِهما لأربعمائة عامٍ؛ منذ أن أتى أوَّلُ غريبٍ إلى أرضهم، وفي يَدِهِ القوة وسُلطة الدين والأسلحة النارية. وفي خلال الأربعمائة عامٍ، تعلّم قوم كينو طريقةً واحدةً للدفاع عن أنفسهم-إغلاق أعينهم قليلاً،

والأمر نفْسه مع شفتيهم والانطواء والانعزال. لاشيءَ يُمكن أن يكسر هذا الحصار الذي يعيشون فيه، وربما سيظلون طوال حياتهم على هذا الحال.

كان الحشد مهيبًا. كانوا يشعرون بأهمية هذا اليوم. حتى أن أيَّ طفلٍ أظهر صراخًا أو بكاءً، سرق القبعات، جذب شعور النساء، كان يتمُّ زجرُهُ مِن قِبَلِ الأكبر منه. لقد كان يومًا مُهمًّا لدرجة أنَّ رجلاً عجوزًا أتى على كتفَي ابن أخيه قويِّ البنية؛ ليشاهد ما سيحدث. ترك الجميع المنازل الدغلية، ودخلوا إلى حيِّز البلدة حيث الشوارع الآن أكثر اتساعًا بقليلٍ، الأرصفة جوار البنايات. وكما كان الحال مِن قبل، التحق الشحّاذون بهم بمجرد أن تخطوا الكنيسة؛ وألقى البقَّالون نظرةً على الجمع وهو في طريقه، وفقدت الحانات القليلة زبائنها، وأغلقها أصحابها، وذهبوا مع الحشد. كانت الشمس تسقط أشعتها مُباشرةً على شوارع البلدة، وحتى الأحجار الصغيرة ألقت بظلالها على الأرض.

كانت أخبار قدوم الحشد قد انتشرتْ وسبقتْهُ، وفي مكاتبهم الصغيرة المعتمة، جلس تجَّار اللؤلؤ يقظينَ مُستعدِّينَ لما هو قادمٌ. أخرجوا بعض الأوراق مِن أدراج مكاتبهم حتى يبدو وكأنهم منشغلين عندما يأتي كينو. أبعدوا لآلئهم عن أسطح مكاتبهم، حيث إنه ليس مِن الجيد أن تترك لآلئ قليلة القيمة بجانب زبونٍ يأتي لك بلؤلؤةٍ كبيرةٍ وجميلةٍ. جاءتهم الأخبار عن لؤلؤة كينو، وعن كم هي جميلةٌ وبديعةٌ. كانت مكاتب تجَّار اللؤلؤ متجمّعةً كلها في شارعٍ ضيِّقٍ، وقد وضع أصحابُهَا قضبانًا حديديةً على نوافذها وحواجزَ خشبيةً منعت الضوء مِن الدخول إلى داخل المكاتب عدا خيوط ضئيلة منه، تسلَّلت إلى الداخل.

يجلس رجلٌ بدينٌ بطيء الحركة إلى مكتبِهِ منتظرًا. وجهُهُ أبويٌّ ولطيفٌ، عيناهُ تلمعانِ بالمودَّةِ. بدا وكأنه أحد الذين يمكن أن يكونوا سببًا في صباحاتٍ جميلةٍ للمرء. يُسلِّمُ على الجميع بشكلٍ رسميٍّ بيديه الاثنتين، رجلٌ خفيفُ الظلِّ يعلم كلَّ النكات، وفي الوقت نفْسه تحوم حول عينيه أشباحُ حزنٍ ما. فَمِن الممكن أن تجده في منتصف ضحكةٍ، قد تذكّر موت خالةٍ له، ويمكن لعينيه أن تتبلَّل بالحزن على ذلك الأمر فجأةً. هذا الصباح، وضع زهرةً في مزهريةٍ على مكتبِهِ، زهرة واحدة قرمزية، في حين كانت المزهرية موضوعةً جوار العلبة المخملية السوداء، والتي هي بدورها أمامه مباشرةً. كان يُملِّس على لحيتِهِ الحليقةِ بيديه النظيفتينِ ذواتي الأظافر المقصوصة. بابُهُ مفتوحٌ للصباح، ويدندن بينما يده اليمنى تمارس لعبةً سحريةً بسيطةً. يلفّ اللعبة بين أصابعه، فيظهرها تارةً، ويخفيها تارةً أُخرى. يجعلها تعتمُ مَرَّةً، وتلمعُ مَرَّةً أُخرى. كانت العملة المعدنية تلمعُ في جانبٍ، وبسرعةٍ تنزلق بعيدًا عن الرؤية. أمَّا الرجل، فلا يبدو عليه أنه يتابعُ لعبتَهُ البسيطةَ تلك. كانت أصابعُهُ تقوم بالأمر بشكلٍ ميكانيكيٍّ تمامًا، بينما الرجل يدندن لنفْسه وينظر إلى خارج باب مكتبِهِ. ثمَّ سمع صوت حركة أقدام الحشد قادمًا وأصابع يده اليمنى تلعبُ أسرع وأسرع بالعملة، حتى ظهر كينو أمام مدخل الباب، لمعت العملةُ، واختفتْ.

قال الرجل البدين: «صباح الخير صديقي، ماذا يمكن أن أفعل لأجلك»؟

حدّق كينو في عتمة المكتب الصغير، أغلق عينيه قليلاً؛ ليحميها مِن الوهج الآتي مِن الخارج، ولكنَّ عينَي التاجر كانت ثابتةً وجادةً بلا التماعٍ،

مثل عينَيْ صقرٍ، في حين كان باقي وجهه يبتسم وهو يجيبُهُ. وفي الخفاء، خلف المكتب، كانت يده اليُمنى تمارس لعبتها مع العملة.

«لديَّ لؤلؤةٌ».

قالها كينو، وجوان توماس يقف بجانبه. تجمّع الجيران حول مدخل المكتب، صفٌّ مِن الأولاد الصغار أمسكوا بقضبان النوافذ، وهم ينظرون إلى الداخل مِن خلالها. عددٌ مِن الأولاد الصغار حول ساقَيْ كينو، راقدون على أيديهم وركبهم؛ ليشاهدوا ما يحدث.

«لديك لؤلؤةٌ، في بعض الأحيان يأتي الرجل بعشراتٍ منها. حسنًا، اجعلنا نرى لؤلؤتَكَ. سوف نقيّمها، ونعطيك أفضل سعرٍ».

قالها الرجل، ويداهُ تلعبانِ بالعملة بسرعةٍ وتوتُّرٍ. أما كينو فقد كان يعرفُ كيف يؤثِّر على الرجل بشكلٍ دراميٍّ. وببطءٍ، أخرج الحقيبة الجلدية، وببطءٍ أيضًا أخذ منها قطعة جلد الغزال القديمة الناعمة. ثُمَّ أخرج اللؤلؤة منها جاعلاً إيَّاها تتدحرجُ تجاه العلبة المخملية، وفي اللحظة نفْسها، ذهبتْ عيناهُ إلى وجه الرَّجُل. ولكنْ لم يكنْ هناك أيُّ علامةٍ، أيُّ حركةٍ، لم يتغيَّرْ أيُّ شيءٍ في وجه التاجر، ولكن اليد المتخفية وراء المكتبة كانت في تلك اللحظة قد فقدتْ دِقَّتَها، ووقعت العملة مِن بين أصابعها في صمتٍ على ركبة التاجر. انغلقت أصابع اليد المتخفية حول المكتب قابضةً على باطن الكف. عندما ظهرت اليد اليُمنى مِن الخفاء، لمستْ سبَّابته اللؤلؤة العظيمة، أدارها في العلبة المخملية السوداء؛ التقطتْها السبَّابة والإبهام، وقرّبها مِن عينيهِ مُديرًا إيَّاها في الهواء.

حبس كينو أنفاسه، وحبس الجيران أنفاسهم، وتراجع الهمس بين الحشد. «هو يفحصها. لم يحدِّد السعر بعد. لم يأتيا لمرحلة السعر».

بدتْ يد التاجر التي تقلّب اللؤلؤة في الهواء، وكأنها ذاتٌ مُستقلّةٌ. أرجعت اليد اللؤلؤةَ إلى العلبة المخملية، ثم وكزتها السبَّابة بشيءٍ مِن الازدراء، وعلى وجه التاجر ظهرت ابتسامةٌ بها مزيجٌ مِن الازدراء والأسف.

«أنا آسفٌ ياصديقي».

قالها، وهو يهزّ كتفيه لأعلى قليلاً؛ ليشير إلى أن هذا الأمر ليس خطأه.

قال كينو: «إنها لؤلؤةٌ عظيمة الثمن»!

أخذتْ أصابع التاجر اللؤلؤة مِن العلبة المخملية مُدحرجًا إيَّاها تجاه كينو.

قال التاجر: «هل سمعتَ عن الذهب الـمُزيَّف؟ هذه اللؤلؤة مثل الذهب المزيف. إنَّها ضخمةٌ جدًّا. مَن سوف يشتريها؟ ليس هناك سوقٌ لبيع مثل هذه الأشياء. إنَّهَا مُناسِبَةٌ فقط للعرض على الجمهور. أنا آسفٌ. أنتَ اعتقدتَ أنَّهَا شيءٌ ذو قيمةٍ، ولكنَّهَا في الحقيقة لا تصلح سوى للعرض».

ارتبك كينو في تلك اللحظة، وبدا عليه القلق، فصرخ: «إنَّها لؤلؤة العالم، ليس هناكَ مِن أحدٍ رأى مثلها مِن قبل».

«الحقيقةُ عكسُ ما تقول تمامًا، إنَّهَا كبيرةٌ وعديمة القيمة. فقط تصلح

للعرض، لجذب الانتباه؛ رُبَّمَا بعض المتاحف تأخذها ضمنَ مجموعةِ أصدافٍ. يمكنُ أن أدفعُ فيها مثلا ألف بيسو».

بدا وجه كينو وكأنه يُظلِم ويزدادُ غضبًا: «إنَّها تستحقُّ خمسين ألف بيسو. أنتَ تعلم ذلك، أنتَ تريدُ أن تخدعني وتحتالَ عليَّ».

سمع التاجر حينها أصواتَ تذمُّرٍ تسري في الحشد عندما سمعوا السعر الذي قاله، فشعر برجفة خوفٍ.

فقال بسرعةٍ وشيءٍ مِن التوتُّر: «لا تلمني، أنا أُقيِّمُ فقط. اسأل التجَّار الآخرين. اذهبْ إلى مكاتبهم، وأرِهِمْ لؤلؤتك. أو الأفضل أن يأتوا إلى هنا، وبذلك يمكنك أن ترى أنَّ الأمر ليس به أيَّ احتيالٍ أو مؤامرة أو تواطؤ. يا ولد»! عندما نادى، ظهر خادمه مِن الباب الخلفي: «يا ولد، اذهبْ وأحضر التجَّار الآخرين مِن المكاتب المجاورة. اطلبْ منهم أن يأتوا، ولا تخبرهم عن السبب. فقط أخبرهم أنني سأكون سعيدًا بأن أراهم». وعادتْ يَدُهُ اليُمنى إلى ما وراء المكتب، سحب عملةً أُخرى مِن حافظته، وأخذ يمارس خدعته المفضلة في الخفاء.

أخذ جيران كينو يهمسون، لقد كانوا خائفينَ مِن أمرٍ مثل هذا. اللؤلؤة كبيرةٌ، ولكن لونها غريبٌ حقًّا. لقد كانوا يشكُّون في أمرها مِن البداية. وبعيدًا عن كل هذا، ألف بيسو ليست مبلغًا يُلقى هكذا أو يُرفض. إنَّهَا ثروةٌ بالنسبة لِرَجُلٍ مثل كينو، لم يملكْ يومًا مثل هذا المبلغ مِن المال.

ولكن كينو ازداد عنادًا وصرامةً. لقد شعر بأنَّ كارثةً تزحفُ إليه، ذئابٌ تحوِّمُ حوله، نسورٌ تُحلّق فوق رَأْسِهِ. شعر بالشَّرِّ يصيبُهُ بسوءٍ، ولم

يكنْ في إمكانِهِ أن يحميَ نفْسه، سمع في أُذُنَيْهِ موسيقى الشَّرِّ وفي العلبة المخملية السوداء كانت اللؤلؤة تومضُ وتلمعُ، ولم يستطعْ حينها البائع أن يحافظ على نَظَرِهِ بعيدًا عنها.

اضطرب الحشدُ عند الباب، وانقسم نصفينِ، صانعًا طريقًا ضيِّقًا يسمح للتجَّار الثلاثة أن يمرُّوا خلاله. كان الجميع في صمتٍ خوفًا مِن أن يفوتهم ولو كلمةٌ، خوفًا مِن أن يفشلوا في أن يروا أيَّ إيماءةٍ أو تعبير في المشهد. وكان كينو صامتًا مُراقِبًا ما يجري. شعر بسحبةٍ بسيطةٍ على ظهره، فالتفَّ، ونظر إلى عينَيْ جوانا، وعندما عاد ونظر للتاجر مِن جديدٍ، شعر وكأنَّ قوَّتَهُ وطاقتَهُ قد عادت.

لم ينظرْ أيٌّ مِن التجَّار الثلاثة إلى بعضهم البعض، أو إلى اللؤلؤة. قال الرجل الجالس خلف المكتب: «لقد وضعتُ قيمةً لهذه اللؤلؤة. وصاحبها يرى أنها ليست عادلةً. سوف أطلب منكم أن تفحصوها، ويقدِّم كلٌّ منكم عرضًا له. ولاحظ،» قالها لكينو. «لم أخبرْهم بشيءٍ عن عرضي».

كان التاجر الأول ذا وجهٍ قاسٍ، مفتول العضلات، بدا عليه وكأنه لم ينتبهْ لوجود اللؤلؤة، ويراها الآن لأوَّل مَرَّةٍ. أخذها، أدارها بسرعةٍ بين السبابة والإبهام، ثم ألقاها بازدراءٍ في العلبة. ثم قال بطريقةٍ جافَّةٍ: «لا تدخلْني في هذه المناقشة. إنها كبيرةٌ بشكلٍ غير مألوفٍ وبشعةٌ».

ثُمَّ زمَّ شفتيه النحيلتينِ. أمَّا التاجر الثاني فقد كان رجلًا قصيرًا ذا صوتٍ خافتٍ. أخذ اللؤلؤة، وفحصها بحرصٍ. أخرج عدسةً مُكبِّرةً مِن محفظته، وفحص اللؤلؤة ثانيةً تحت العدسة، ثُمَّ ضحك بصوتٍ منخفضٍ.

«اللآلئُ الأفضل الآن تصنعُ مِن الماس الصناعي، أعرف هذه الأشياء. إنَّها ناعمةٌ وطباشيريةٌ، وسوف تفقد لونها، وتموت في خلال أشهر قليلةٍ. انظرْ».

ثمَّ قدَّم العدسة لكينو، فبدا سطح اللؤلؤة تحت العدسة غريبًا بشكلٍ صَدَمَهُ. بعدها أخذ التاجر الثالث اللؤلؤة مِن يَدَيْ كينو: «أحدٌ مِن زبائني يحبُّ مثل هذه الأشياء، سوف أعرض خمسمائة بيسو، وربما يمكن أن أبيعها إلى زبوني بستمائةٍ».

خطف كينو اللؤلؤة مِن يديه بسرعةٍ. لفّها في جلد الماعز، وحشرها في قميصه.

قال التاجر الجالس إلى مكتبه: «أنا أحمق، أعرف ذلك. ولكني لا أزالُ عند عرضي الأول. لا أزال أُقدِّمُ ألف بيسو. ماذا تفعل»؟

سأله التاجر بينما كينو يدفع باللؤلؤة داخل قميصه بعيدًا عن الأعين.

«أنا أتعرَّضُ للاحتيال منكم الآن، لؤلؤتي ليست للبيع هنا. ربما سأذهب بها إلى العاصمة».

قالها صارخًا بغضبٍ. ثُمَّ نظر التجَّار إلى بعضهم البعض بسرعةٍ. علموا أنهم تمادوا في لعبتهم أكثرَ مما ينبغي؛ ويعلمون أنهم سوف يتعرضون للعقاب جرَّاء فشلهم. فقال التاجر الجالس إلى مكتبه بسرعةٍ: «يمكنُ أن أُقدِّمَ ١٥٠٠».

ولكن كينو كان قد شقَّ طريقه بين الحشد. أتتْهُ وهو يتحرك همهمات المحادثة بشكلٍ خافتٍ، وكان دَمُهُ الغاضب يدقُّ في أُذُنَيْهِ، وقد اندفع بين

الحشد وهو يخطو خطواتٍ كبيرةً، وهرولتْ جوانا وهي تحاولُ أن تلحقَ بِهِ؛ لِتتبعَهُ.

عندما أتى المساء، جلس الجيران في منازلهم الدغلية وأكواخهم؛ ليتناولوا عشاءهم الذي اعتادوا أن يكون مِن كعك الذرة والفول. احتاروا فيما حدث اليوم. إنها تبدو لؤلؤةً جميلةً بالنسبة لهم، ولكنهم لم يروا واحدةً مثلها مِن قبل. بالتأكيد يعرف التجَّار أكثر منهم عن قيمة اللآلئ. «ولاحظ،» قالوا «هؤلاء التجَّار لم يتناقشوا في الأمر مِن قبل، وكلُّ واحدٍ مِن الثلاثة وجد اللؤلؤة بلا قيمةٍ».

«ولكن لنفترضْ أنهم قد رتبوا الأمر كله»!

«إن كان حدث ذلك فعلاً، فقد تعرَّضنا للاحتيال والخداع طوال حياتنا».

البعض جادل: «ربما كان مِن الأفضل لو أخذ كينو الألف وخمسمائة بيسو. هذا ليس مبلغًا قليلاً. إنه أكثر مِن أيِّ مبلغٍ قد رآه مِن قبل. ربما يكون كينو ما هو إلا أحمق كبيرٌ. افترضْ أنَّهُ يمكن أن يذهب إلى العاصمة، ولم يجدْ هناك مَن يشتري لؤلؤته. لن يتحمل هذا الأمر».

آخرون كانوا خائفين، قالوا إن بعد كل ما حدث بينه وبينهم، لن يتعامل هؤلاء التجَّار معه مَرَّةً أُخرى. ربما يكون كينو قد فقد عقله، ودمَّر نفْسه.

آخرون قالوا إن كينو على حقٍّ. هو رَجُلٌ شجاعٌ، صارمٌ وجادٌّ. ومِن شجاعته هذه سنستفيد كلنا. هؤلاء كانوا فخورين بكينو.

في منزلِهِ، جلس كينو مقرفصًا على حصيرة نومه، مُكتئبًا. كان قد دفن لؤلؤته تحت حجرٍ مِن أحجار حفرة الموقد. وجلس يُحدِّق في شرائط نسيج حصيرة نومه، حتى شعر أنَّ التصاميم المتعامدة على بعضها البعض تتراقص في رأسِهِ.

لقد فقد عالَمـًا، ولم يكسبْ آخرَ بدلًا منه. لقد كان كينو خائفًا؛ فلم يحدثْ في حياتِهِ أبدًا أن ذهب بعيدًا عن بيتِهِ. كان خائفًا مِن الأغراب، ومِن الأماكن الغريبة. كان مرعوبًا مِن هذا الوحش الذي يُسمِّيه الناس «العاصمة». إنها تبعد آلاف الأميال، وسيحتاجُ أن يجتاز البحر وسلسلة الجبال. كلّ ميلٍ سيجتازه، يُدخِل الخوف والاغتراب إلى قلبِهِ. لكن كينو فقد عالَمَهُ القديم بالفعل، ويجب أن يحاول إيجاد آخرَ جديدٍ. مِن أجل أن يكون حلم مستقبله حقيقةً، ولا يُدمَّر. هو قالها: «سوف أذهب». وهذا جعل الأشياء تبدو حقيقيَّةً أيضًا. أن تُقرَّرَ الذهاب وتقول ذلك، كان هذا بمثابة قطع نصف المهمة.

شاهدتْهُ جوانا وهو يدفنُ لؤلؤتَهُ، شاهدتْهُ بينما هي تنظف كويوتيتو، وظلَّتْ تراقبه بعد أن انتهت مِن الرضيع، وأخذتْ تُعِدُّ كعك الذرة مِن أجل العشاء.

أتى جوان توماس، وجلس جوار كينو. ظلّ صامتًا لوقتٍ طويلٍ، حتى سأله كينو في النهاية:

«ماذا يمكن أن أفعل غير ذلك؟ لقد كانوا يريدون الاحتيال عليَّ»!

هزّ جوان توماس رأسه بحدَّةٍ. كان الأخ الأكبر عمرًا، ودائمًا ما طلب

كينو رأيه وحكمته.

«مِن الصعب أن نعرف. نحن لا نعلم إن كانوا قد احتالوا علينا منذ مولدنا. ولكننا نجونا. أنت لم تتحدَّ فقط تجّار اللؤلؤ، بل تتحدَّى النظام كُلَّهُ، طريقة العيش كلها، وأنا خائفٌ عليك».

سأله كينو: «ممَّا يمكن أن أخاف باستثناء أن نجوع»؟

لكن جوان توماس هزّ رأسه ببطءٍ.

«هذا ما يجب أن نخشاه جميعًا. ولكنْ لنفترض أنَّك على حقٍّ، لنفترض أن لؤلؤتك ذات قيمةٍ كبيرةٍ حقًّا، هل تظن أن اللعبة قد انتهت»؟

«ماذا تعني»؟

«لا أعلم. ولكنني أشعر بالخوف عليك. إنها أرضٌ جديدةٌ تلك التي ستسيرُ فيها، وأنت لا تعرف الطريق»!

«سوف أذهب. يجب أن أذهب قريبًا».

وافقه جوان توماس: «نعم، هذا ما يجب أن تفعله. ولكنني لا زلتُ أُفكِّرُ فيما إذا كنتَ ستجد أيَّ اختلافٍ في العاصمة. هنا لديك أصدقاء، أنا أيضًا موجودٌ، أخوك. هناك، لن يكون أحدٌ معك».

صرخ كينو: «ماذا يمكن أن أفعل؟ هناك خزيٌ وظلمٌ عميقٌ هنا. ابني يجب أن يحصل على فرصةٍ. هذا ما يحاربونه. أصدقائي سيحموننني».

نهض وهو يقول: «فقط طالما لم يكونوا مُعرَّضين للخطر، اذهبْ فليكن الرب في عونك».

قال كينو مُحدِّثًا نفْسه: «أذهب مع الرب»، وهو ينظر إلى الأرض دون أن يحاول رفع رأسه لأعلى. لقد كان وقع الكلمات عليه مُحْبِطًا.

ظلّ كينو جالسًا مُثبَّطًا على حصيرة نومه لوقتٍ طويلٍ بعد ذهاب جوان توماس. حلَّ النُّعاسُ عليه، وبعضٌ مِن الشعور بانعدام الأمل. بدا كلُّ طريقٍ مُقْفَلًا في وجهِهِ. وسمع في رأسه موسيقى معتمةً، موسيقى العدوِّ. حواسه كانت تشتعلُ وتنبضُ، لكنَّ عقلَهُ أخذ يراقبُ كلَّ شيءٍ بعملٍ، وهو الشيء الذي اكتسبه مِن قومه. كان يسمع كلَّ صوتٍ، مهما كان ضئيلًا في ذلك الليل: أصوات الطيور الناعسة، مواء القطط أثناء ممارستها للحب، ضربات الموجات القليلة على الشاطئ أثناء المد والجزر، وصوت هسهسةٍ يأتي مِن بعيدٍ. كان يشمّ رائحة عشب البحر مع ضربات الموجات له. وفي الوقت نفسه كان يرى التوهُّج الضئيل للأغصان الصغيرة المشتعلة أمام حصيرة نومه، ولهبها يتقافز أمام عينيه.

راقبته جوانا بقلقٍ، ولكنها تعرفه، وتعرف أنَّ بإمكانها مساعدته بشكلٍ أفضل بأنْ تظلَّ صامتةً وأن تكون قريبةً منه في الوقت نفْسه. ومع ذلك، كانت تشعرُ بنغمة الشَّرِّ تدقُّ في رأسها. حاربتْهَا وغنَّتْ بصوتٍ هاديءٍ أُغنية الأُسْرة، أغنية الأمان والدفء وكل ما تشعر به مع كينو ورضيعها. حملت كويوتيتو بين ذراعيها وغنَّتْ له؛ لكي تُبقي الشَّرَّ بعيدًا عنه. كان صوتُهَا شجاعًا في مواجهة تهديد تلك الموسيقى المعتمة.

لم يتحركْ كينو، ولم يطلب العشاء. كانت تعلمُ أنَّهُ سيطلبه عندما يريد ذلك. عيناهُ مُحدِّقتانِ في الفراغ، يشعر بشيءٍ داخله يُحذِّرُهُ، هنالك شيءٌ غيرُ عاديٍّ في الخارج بالقرب مِن الكوخ. شعر بخشخشة شيءٍ

ما في العتمة. شيءٌ ينتظر أن يخرج في هذا الليل. شيءٌ مُروِّعٌ، يدعوهُ، يهدِّدُه، يتحدّاهُ. أدخل يدَهُ في قميصه مُتحسِّسًا سِكِّينَهُ. كانت عيناهُ مُحدِّقةً بأقصى اتساعها. وقف وسار تجاه الباب.

أرادت جوانا أن توقفه، رفعتْ يَدَهَا لتفعل ذلك وفمها مفتوح خوفًا. للحظةٍ طويلةٍ نظر كينو إلى العتمة في الخارج، ثم خطا صوبها. سمعتْ جوانا حركةً خافتةً، صوتَ مقاومةٍ، ضربةً، فتجمّدتْ مِن الرعب للحظةٍ، زمّت شفتيها بأسنانها كالقطة، وضعتْ كويوتيتو على الأرض، أمسكتْ بحجرٍ مِن حفرة الموقد، واندفعتْ إلى الخارج، ولكن الأمر كان قد انتهى حينها. كان كينو مستلقيًا على الأرض، يحاول أن ينهض. ليس هناك أحدٌ حوله. فقط ظلالٌ بعيدةٌ، وضربةٌ على رأسه، ولطمات الموج للشاطئ، وصوت هسهسةٍ مِن بعيدٍ. ولكن الشَّرَّ كان حول كل ذلك، يُغلِّفُهُ، مختبئًا خلف السياج الدغلي، يجثمُ على البيت، يُحوِّمُ في الهواء.

أسقطت جوانا الحجر مِن يدها، ووضعتْ ذراعيها حول كينو، ثُمَّ ساعدتْهُ على أن يقف على قدميه، وسندته حتى دخلا المنزل. الدم ينزُّ مِن رأسه. كان هناك قطعٌ طويلٌ وعميقٌ في وجنته مِن الأُذُنِ حتى الذقن، شقٌّ عميقٌ ينزفُ. كان كينو نصفَ واعٍ للأشياء مِن حوله. هزّ رأسه محاولاً أن يستعيد وعيه كاملًا. قميصه مفتوحٌ حتى منتصفه ومُمزَّقٌ. أجلستْهُ على حصيرة النوم، ومسحت الدم المتجلِّط مِن على وجهِهِ بتنُّورتها. جلبتْ بعض البالكي في كوبٍ صغيرٍ؛ مِن أجل أن يشربَهُ. ظلَّ يهزُّ رأسه؛ ليبعد تلك العتمة التي كان يشعر أنها تغمره.

سألته جوانا: «مَن»؟

«لا أعرف. لم أره».

أحضرتْ جوانا في تلك اللحظة إناءً فخاريًّا به ماءٌ، وغسلتْ جرح وجهه، بينما هو يحدِّق أمامه.

«كينو، زوجي» قالتها وهي تبكي بينما عيناهُ تُحدِّق فيها: «كينو، هل تستطيع سماعي»؟

«أسمعُكِ».

«كينو، هذه اللؤلؤة شَرٌّ. لندمِّرْها قبل أن تدمِّرنا. لِنحطِّمْها بين صخرتين. لنلقها في البحر مِن حيث أتت. كينو، إنها شَرٌّ! شَرٌّ»!

وبينما هي تتحدَّثُ، لمعتْ عينا كينو بشدَّةٍ، وأصبحتْ عضلاتُهُ مشدودةً، وإرادتُهُ أقوى.

«لا، سوف أحارب هذا الشيء. سوف أفوز عليه. سوف نحصل على فرصتنا».

بينما كانتْ قبضتُهُ تمسك بحصيرة نومه: «لا أحد سوف يسلبنا ثروتنا».

وارتخت عيناهُ قليلًا، ثم رفع يده، ووضعها على كتف جوانا بلطفٍ: «صدقيني، أنا رَجُلٌ».

وأصبح وجهه أكثر مكرًا وهو يقولُهَا.

«في الصباح، سوف نأخذ قاربنا، ونجتاز هذا البحر، ونتخطَّى هذه الجبال حتى نصل إلى العاصمة. أنا وأنتِ. لن يُحتال علينا. أنا رَجُلٌ».

قالت بصوتٍ مبحوحٍ: «كينو، أنا خائفةٌ. الرَّجُلُ يُمكن أن يُقتل. اتركنا نعيد اللؤلؤة إلى البحر».

«هُشش، أنا رَجُلٌ. هُشش». فصمتتْ مُطيعةً صوته الآمر.

«لننم قليلًا، ومع أول ضوءٍ للنهار سوف نبدأ رحلتنا. أنتِ لستِ خائفةً مِن الذهاب معي، أليس كذلك»؟

«لا يا زوجي. لستُ خائفةً».

كانت عيناهُ حانيتينِ وذواتي نظرةٍ دافئةٍ، وهو يقول هذه الكلمات. لمس وجنتيها وقال: «لننم قليلًا».

(٥)

ارتفع القمرُ كسولاً مُتأخرًا قبل أن يصيح أوَّلُ ديكٍ. فتح كينو عينيهِ في العتمة عندما شعر بحركةٍ جواره. لكنَّهُ لم يتحرَّكْ. فقط بحثتْ عيناهُ في الظلام الذي تخلَّله الضوء الشاحب للقمر، الذي تسلَّل مِن شقوق جدران المنزل، والتي كانت أصلاً مِن الأجمة. رأى كينو جوانا تنهض بصمتٍ مِن جواره. رآها تتحرَّكُ إلى الموقد. وبحرصٍ قامتْ بما كانت تفعله، ومع ذلك سمع كينو صوتًا خافتًا للغاية عندما حرّكت صخرة الموقد. ثم وكشبحٍ باهتٍ، انسلَّت تجاه الباب. ألقت نظرةً على كويوتيتو المستلقي في صندوقه المعلق، ثُمَّ وفي ثانيةٍ خرجتْ مِن الباب، واختفتْ.

اشتعل الغضب داخل كينو. نهض مِن نومه، وتبعها في صمتٍ حيث هي ذاهبةٌ، وقد كان في إمكانه أن يسمع وقع خطواتها المسرعة ذاهبةً تجاه الشاطئ. بهدوءٍ تتبَّع مسارَهَا، ورأسُهُ تشتعلُ مِن الغضب. تعثَّرتْ جوانا فوق الصُّخور الصغيرة وهي تتَّجِهُ صوبَ الماء بعد أن ابتعدتْ عن السياج

الدغلي ثُمَّ سمعتْهُ يأتي تجاهها، فأسرعتْ خطواتها، وجرتْ. وبينما ترفع ذراعها؛ لتُلقي باللؤلؤة، انقضَّ عليها، ممسكًا بذراعها، مختطفًا اللؤلؤة منها. ضربها على وجهها بقبضتِهِ، فسقطتْ بين صخور الشاطئ، ثُمَّ ركلها في جنبها. في الضوء الشاحب، كان يمكنه أن يرى الأمواج الضئيلة تتكسّر فوق جسدها، وتنورتها تطفو عليها حينًا، وتلتصقُ بساقيها حينًا آخر مع حركة الماء.

نظر كينو إليها وهي ملقاةٌ على الأرض، وقد ظهرتْ أسنانُهُ في هيئةٍ وحشيةٍ مِن الغضب. أصدر صوتًا بدا كفحيح أفعى ستنقضُّ على فريستها، بينما حدَّقتْ جوانا فيه بعينينِ متسعتينِ غير خائفتينِ، مثل خروفٍ على وشك الذبح على يد جزَّارٍ. كانت تعرف أنَّ هناك قاتلاً داخله، وقد كان ذلك صحيحًا؛ قبلتْ بذلك، ولم تقاومْ أو تصدرْ أيَّ اعتراضٍ، وهو على وشك قتلها. ثم ذهب عنه الغضب المستعر، وحلَّ مكانه شعورٌ بالتقزز المريع. ابتعد عنها، وترك الشاطئ صاعدًا عبر سياج الأجمة. كانت حواسه قد توقَّفتْ جميعُهَا عن العمل تقريبًا مِن فرط انفعاله.

سمع حركةً، فأمسك بسكِّينه وأخرجه وانقضَّ على مَن كان يتحرك في الظلام، فشعر بسكِّينه ينفذ في هدفِهِ، ضُرِب، وعلى أثر الضربة تهاوى على ركبتيهِ، ثُمَّ على الأرض. شعر بأيدٍ مسعورةٍ تدخل إلى ملابسِهِ وتُفتِّشُهُ، سقطت اللؤلؤة مِن بين يديه، واستقَّرتْ محشورةً خلف صخرةٍ في الممر المؤدِّي إلى الشاطئ، لامعة كلما وقع عليها ضوء القمر الشاحب.

لملمتْ جوانا نفْسها، ونهضتْ مِن بين الصخور عند حافة الماء. كان وجهُهَا مُتورِّمًا، وبه ألمٌ عصيبٌ غير الألم الذي كان بجنبها. استندتْ على

ركبتيها للحظةٍ، وتنُّوْرَتُهَا المبتلة ملتصقةٌ بها. لم يكنْ هناك أيُّ غضبٍ داخلها تجاه كينو. لقد قال: «أنا رَجُلٌ»، وهذا يعني أشياءَ واضحةً وأكيدةً بالنسبة لجوانا. الأمر يعني أنَّهُ نصفُ مجنونٍ ونصفُ إلهٍ. إنه يعني أنَّ كينو قد يندفع بقوته ليقف أمام جبل، أو يقدم على مواجهة البحر. أما جوانا، وبروح المرأة داخلها، عرفتْ أن الجبل سيظلُّ ثابتًا كما هو بينما سينكسر الرَّجُلُ، وأنَّ البحر قد تندفع أمواجُهُ ويثور بينما سيغرق الرَّجُلُ فيهِ. وأنَّ هذا هو ما يجعل منه رجلًا، نصفَ مُختلٍّ ونصفَ إلهٍ، وجوانا في حاجةٍ إليه كرَجُلٍ؛ لا تستطيع العيش دون رَجُلٍ. مع أنها يمكن أن تحتار أمام هذه الاختلافات بين الرَّجُلِ والمرأة، لكنَّها كانت تعرف أنها ستقبلها، وأنها تحتاجُ له رغم ذلك كله. بالطبع سوف تتبعه، ليس هناك محلٌّ للسؤال حول ذلك. في بعض الأحيان، يمكن للمرأة ولحرصها وشعورها الفطري بالرغبة في حماية أُسرتها أن تكون حائلًا بين كينو وجنونِهِ مِن ناحيةٍ، وبين الخطر مِن ناحيةٍ أُخرى، كانت تعرف أنها يمكن أن تنقذهم جميعًا. قفزتْ على قدميها متألمةً، غمستْ كفِّيها على هيئة كوبينِ في الموجات القليلة، وغسلت الكدمة التي في وجهها بالماء المالح اللاذع، ثُمَّ زحفتْ صاعدةً مِن على الشاطئ.

مِن الجنوب، أتتْ سحابةٌ مرتحلةٌ مِن جنبات السماء، وبدتْ فضِّيَّةً تحت ضوء القمر الشاحب الذي كان يظهرُ ويختفي بين حينٍ وآخرَ مِن خلف السحب. كانت جوانا تشعر بآلامٍ في مؤخرتها، ولا تستطيعُ رفع رأسها كاملةً. عبرتْ مِن بين سياج الأجمة عندما كان القمر مُغطًّى مِن قِبَلِ السحب، لمحتْ لمعان اللؤلؤة مِن خلف صخرةٍ، وهي تسيرُ في

طريقها صاعدةً الممر. ركعتْ على ركبتيها، والتقطتْها، وعاد القمر مِن جديدٍ إلى التخفِّي وراء السحب. فكَّرتْ أن تعود إلى الشاطئ مِن جديدٍ، وتُنهي مهمتها. وبينما هي تُفكِّر، أتى ضوء القمر مِن جديدٍ، ورأتْ هيئتينِ معتمتينِ ملقيتينِ في الطريق أمامها. انحنتْ للأمام، ورأتْ أنَّ أحدهما كان كينو، والآخر كان رجلاً غريبًا بسائلٍ أسودَ لامعٍ يسيلُ مِن فَمِهِ.

تحرَّك كينو بصعوبةٍ، بدا وكأنه حقيبةٌ مسحوقةٌ. كان هناك رجلٌ ميِّتٌ في الطريق، ونصل سكِّين كينو عليه ذلك السائل الأسود. أقنعها ذلك كله بحقيقة ما وصلا إليه. طوال الوقت حاولت جوانا إنقاذ شيءٍ مِن السلام القديم الذي كانا يعيشانه قبل اللؤلؤة. ولكن ما وجدتْهُ أمام عينيها أقنعها أنَّ الماضي ذهب بلا رجعةٍ، وليس هناك ما يمكن أن يفعلاه الآن سوى إنقاذ نفْسيهما.

ذهب عنها ألمها الآن. وبسرعةٍ، سحبت الرجل الميِّت إلى سقيفةٍ مِن الأجمة على جانب الطريق. ذهبتْ إلى كينو، مسحتْ وجهَهُ بتنورتها المبللة. عادت الحياة مِن جديدٍ إلى حواسه، وصدرتْ منها أَنَّةٌ.

«أخذوا اللؤلؤة! لقد فقدتها للأبد»!

هدّأَتْهُ جوانا كما لو أنها تُهدِّئُ طفلاً مريضًا.

«هُشش، ها هي لؤلؤتُكَ. وجدتُهَا على جانب الطريق. هل تستطيع سماعي؟ ها هي لؤلؤتُكَ. هل تفهم ما أقوله؟ لقد قتلتَ رَجُلًا. يجب أن نرحل مِن هنا. سوف يأتون مِن أجل القبض علينا. هل تفهم ما أقول؟ يجب أن نرحل قبل ضوء النهار».

«لقد هوجمتُ، لقد ضربْتُهُ دفاعًا عن حياتي».

قالها كينو بصعوبةٍ.

سألتْهُ جوانا: «هل تتذكر ما حدث بالأمس في البلدة»؟

«هل تظنَّ أنهم سيهتمون بما تقول بعد رفضك بيع اللؤلؤة؟ هل تتذكر كيف كان حال الناس في البلدة؟ هل تعتقد أن كلامك سيساعد في أيِّ شيءٍ»؟

أخذ كينو نفسًا عميقًا مُقاوِمًا ضعفه: «لا. أنتِ على حقٍّ».

قالها، وقد أصبحتْ عزيمتُهُ أقوى، وبدا أنه استعاد الرَّجُلَ الذي داخله.

«اذهبي إلى منزلنا، وأحضري كويوتيتو، واجلبي كلَّ الذرة التي لدينا، سوف أسحبُ القارب إلى الماء؛ لنذهب مِن هنا».

أخذ السكِّين، وترك جوانا. نزل إلى الشاطئ مُتعثِّرًا في ذاته إلى حيث كان قاربه مربوطًا. عندما ظهر ضوء القمر مُجدَّدًا مِن خلف السحب، رأى الثقب الكبير مِن قاع القارب. استعر الغضب فيه. ومع الغضب تملكته قوةٌ فوق قوَّتِهِ. الآن، يحيط الظلام بأُسرته. الآن، موسيقى الشَّرِّ تملأ الليل، تكسو أشجار المانجروف، تظهر في صوت إيقاع الأمواج. قارب جدِّهِ، الذي دُهِن وزُيِّن مَرَّةً بعد أُخرى، أُحدِث فيه ثقبٌ ليس بصغيرٍ. هناك عقل شيطانٍ وراء هذا التدبير لذلك كله. قَتْلُ رَجُلٍ ليس عملاً شريرًا بقدر قتل قاربٍ. القارب ليس لديه أبناءٌ ليدافعوا عنه. القارب لا يستطيع حماية نفْسه. قاربٌ مجروحٌ لا يمكن علاجُهُ. كان هنالك شعورٌ بالأسف والخزي

يتخلَّلُ غضب كينو، ولكنَّ الشيء الأخير هذا جعله متماسكًا وبعيدًا عن الانكسار. تحوَّل إلى حيوانٍ مفترسٍ الآن، بغريزتِهِ فقط، سيختبئُ، ومِن ثَمَّ سيهاجم. لقد عاش طوال حياته ليحمي أُسرته ونفْسه فقط. لم يكن واعيًا في تلك اللحظة لألم رأسه. صعد مِن على الشاطئ، عابرًا سياج الأجمة تجاه منزله الدغلي. لم يأتِ في بالِهِ في هذه اللحظات ولا مِن قبل أن يأخذ أحد قوارب جيرانِهِ. أبدًا لم يسمحْ لهذه الفكرة أن تدخل رأسَهُ، بنفس قدر استبعادِهِ أن يثقب أحدهم قاربه في يومٍ مِن الأيَّام.

كانت الديكة تصيحُ، ولم يعد الفجر بعيدًا. كان هنالك دخانٌ يتسرّب مِن بين شقوق أسطح المنازل الدغلية، ورائحة تحضير كعك الذرة مِن أجل الإفطار تملأ الهواء. وطيور الفجر تتقافز على الشجيرات. القمر الهشّ يفقد ضوءَهُ بين السحب التي أخذتْ تتزايدُ وتتجمَّعُ في طريقها ناحية الجنوب. هبَّت الرياح على المصبِّ، منتعشةً في بداية أمرها، ثم زادت، رياحٌ قويةٌ بلا هوادةٍ تنبئُ بعاصفةٍ، وبدا أن هناك تغيُّرًا غيرَ مريحٍ في الطقس.

أسرع كينو إلى منزله، كان الغضب يملؤه. لم يعدْ مُشوَّشًا. هنالك عقلٌ واحدٌ هو مَن دبّر كل هذه الأمور. مدّ كينو يده إلى داخل قميصِهِ مُتحسِّسًا لؤلؤته، ثم لمس سكِّينه المعلق أسفلها.

رأى وميضًا ضئيلاً في رأسِهِ، ثُمَّ وبدون لحظةٍ فاصلةٍ بعد هذا الوميض، رأى ألسنة النيران تتقافز أمام عينيه. في العتمة، صوتُ هديرٍ مُتقطِّعٌ، وهذه النيران المتزايدة حتى أنها أضاءت الطريق مِن الشاطئ إلى منزله. أسرع كينو راكضًا تجاه المنازل، لقد كان الحريق آتيًا مِن بيتِهِ. كان يعلم أنَّ هذه

البيوت يمكنُ أن تحترق جميعها في لحظاتٍ. وبينما هو يجري، كان هناك هيئةٌ مهرولةٌ تجري صوبه. جوانا، وكويوتيتو بين ذراعيها ومعطف كينو في يَدِهَا. أنّ الرضيع في خوفٍ، وعينا جوانا متسعتانِ إلى أقصى حدٍّ رعبًا. استطاع كينو أن يرى بيتَهُ يذهب بلا رجعةٍ، لم يسألْ جوانا. كان يعلم، ولكنها قالت: «لقد كان البيت مقلوبًا. حفروا في كل أرجائِهِ، حتى صندوق الرضيع فتّشُوه. وبينما أتابع ذلك، أشعلوا النيران في المكان كله».

أضاءت ألسنة نيران البيت المحترق وجه كينو بقوةٍ، وسأل: «مَن»؟

«لا أعرف، أولئك الذين يأتون كلَّ مَرَّةٍ في الظلام».

خرج الجيران مِن بيوتهم، وشاهدوا بيت كينو ينهار بعدما أكلته النيران. شعر كينو فجأةً بالخوف. جعله الضوء خائفًا. تذكّر الرجل الميِّت الملقى إلى جانب الطريق تحت سقيفة الأجمة. أخذ جوانا مِن ذراعها ساحبًا إياها إلى مكانٍ غير مرئيٍّ بعيدًا عن النيران، كان ضوء تلك النيران خطرًا عليه. فكّر للحظةٍ، ثُمَّ تحرك بين الظلال حتى وصل إلى باب بيت أخيه، جوان توماس. وبينما هو بالداخل، كان يمكنه أن يسمع أصوات نحيب الجيران في الخارج، الذين اعتقدوا أن كينو وأسرته كانوا داخل البيت حين اشتعلت النيران.

كان منزل جوان توماس مثل منزل كينو. تقريبًا، كانت المنازل الدغلية كلها على الحال نفْسه. حيث كان جميعها يفتقر للضوء والتهوية الجيدة. جلست جوانا وكينو في أحد أركان منزل أخيه، كان في إمكانهما

مِن موضعهما رؤية الألسنة المتلألئة مِن خلال شقوق الحائط. رأوا اللهب طويلاً محتّدًا، رأوا السقف يتهاوى. وشاهدوا النار تخمد وتموت بقدر ما تخمد الأغصان الصغيرة المشتعلة. سمعوا بكاء وصرخات أصدقائهم وجيرانهم، سمعوا نحيب وبكاء أبولونيا، زوجة جوان تومس. كانت المرأة الأقرب لهما. وقد أعلنت رسميًّا بذلك البكاء والنحيب الصاخب، الحداد على موت الأسرة.

وجدت أبولونيا أنها ترتدي ثاني أفضل شال رأسٍ لديها. فعادتْ إلى منزلها لترتدي أفضل شالٍ لديها. وبينما تُنقِّب في صندوق ملابسها بالقرب مِن الحائط، سمعت كينو يتحدث إليها بصوتٍ منخفضٍ: «أبولونيا، لا تصرخي، نحن لم نتأذَّ».

«كيف أتيتَ إلى هنا»؟ سألتْهُ.

«لا تسألي. اذهبي الآن، وأحضري جوان توماس إلى هنا، ولا تخبري أيَّ شخصٍ آخرَ. هذا الأمر مهمٌ بالنسبة لنا يا أبولونيا».

ذهبتْ تجاه الخارج، ويداها أمامها بلا حَوْلٍ، ويبدو عليها أمارات عدم الفهم: «كما تريد يا شقيق زوجي».

عاد جوان توماس بعد لحظاتٍ قليلةٍ مِن خروج جوانا. أضاء شمعةً، واتجه إلى الركن الذي كان يتكوَّم فيه كينو وجوانا والرضيع، وقال: «أبولونيا، قفي عند الباب، وراقبي مَن في الخارج. لا تسمحي لأيِّ شخصٍ أن يأتيَ إلى هنا».

كان جوان توماس الأخ الأكبر. وقد كان هو صاحب النفوذ والتأثير

في قومِهِ.

قال جوان توماس: «ماذا ستفعل الآن ياأخي»؟

«لقد هُوجمتُ في الظلام، وفي خضم العراك قتلتُ رَجُلاً».

«مَن؟» سأل جوان توماس بخوفٍ.

«لا أعرف. لقد حدث كلُّ شيءٍ في الظلام الدامس. كان كلُّ شيءٍ مُظلِمًا تمامًا، وحتى ذلك الذي قتلتْهُ، بدا وكأنه هيئةٌ مِن الظلام».

«إنها اللؤلؤة، هناك شيءٌ شرِّيرٌ في هذه اللؤلؤة. كان يجب أن تبيعها؛ لتُبعدَ هذا الشيء الشرِّير عنك. ربما لايزالُ في إمكانك أن تبيعها، وتشتري بعض السلام لنفْسك».

قال كينو: «أووه... يا أخي، لقد أهانوا كرامتي إهانةً لا تُحتمل الحياة معها. حطّموا قاربي، وأحرقوا منزلي، وهنالك رَجُلٌ قتيلٌ مُلقًى إلى جانب الطريق بين الأجمة. قطعوا كل طريقٍ للهروب. يجب أن تخفيني يا أخي».

نظر كينو إلى أخيه للحظةٍ بدت طويلةً، ورأى القلق في عينَيْ أخيهِ، وبدا أنه على وشك أن يرفض إخفاءَهُ.

«ليس لوقتٍ طويلٍ» قالها كينو مستدركًا «حتى يمر نهار اليوم، وتأتي ليلةٌ جديدةٌ، ثُمَّ سنذهب».

«سوف أخفيكم» قالها جوان توماس.

«لا أريد أن أعرضِّك للخطر، أعرف أنني الآن أشبه بالجزام. سوف أذهب مِن هنا بعد ليلةٍ. ومِن بعدها ستكون في مأمنٍ».

«سأحميك. أبولونيا، أغلقي الباب. ولا تهمسي لأيِّ شخصٍ بأن كينو هنا».

جلسوا جميعًا في صمتٍ، تغلِّفهم عتمة المنزل. استطاعوا أن يسمعوا الجيران يتحدثون عنهم. تمكنوا مِن أن يروا، عبر شقوق حوائط المنزل، الجيران وهم يفتشون عن عظامهم بين الرماد. متقوقعون على أنفسهم في بيت جوان توماس، شعروا بالصدمة التي أصابت الجيران عندما علموا بتلف القارب. ذهب حينها جوان توماس إلى الخارج؛ ليحوّل شكوك الجيران إلى ظنونٍ مختلفةٍ. أخذ يحكي افتراضاتٍ مُتعدِّدةً حول الذي حدث لكينو وجوانا والرضيع. قال لأحدهم: «أظنَّ أنهم ذهبوا جنوبًا بطول الساحل هربًا مِن هذا الشر الذي جثم عليهم»، بينما قال آخر: «كينو لن يترك البحر أبدًا. ربما يكون قد وجد قاربًا آخرَ». ثم أخبر الجميع بأن أبولونيا تشعر بسقمٍ مِن أثر الحزن على أُسرة كينو.

في هذا اليوم، اشتد هبوب الرياح، وضربت الخليج مقتلعةً أعشاب البحر والطحالب التي تنمو بالقرب مِن الشاطئ. كانت الرياح تصدر ما يُشْبِهُ الصراخ في مرورها بين شقوق جدران المنازل الدغلية. لم يكنْ أيُّ قاربٍ مِن الذين خرجوا إلى الصيد في مأمنٍ الآن.

قال جوان توماس وهو واقفٌ بين جيرانٍ: «لقد فُقِدَ كينو. لو كان في الماء الآن لما نجا».

وبعد عدَّةِ جولاتٍ بين منازل الجيران، عاد جوان توماس بما استطاع أن يجلبه: حقيبةٍ مِن القش المنسوج بها فولٌ. نصفِ ثمرة قرع عسلٍ على

هيئة قِدْرٍ ممتلئة بالأرز. كوبٍ ممتلئٍ بالفلفل المجفف وحفنة مِن الملح، وسكِّينٍ ضخمٍ وطويلٍ كما لو أنها فأسٌ صغيرٌ. وبإمكانه أن يستخدمها كأداةٍ وسلاحٍ أيضًا. عندما رآها كينو، لمعتْ عيناهُ، وتلمَّس النصل بأصبعه؛ ليتبيَّن حِدَّتَهُ.

علا صراخ الريح، واشتدّتْ فوق الخليج. ابيض الماء مِن شدة تلاطم الأمواج وعلا زبدها، اقتلعت أشجار المانجروف مِن جذورها، وأخذتْهَا الريح في تيَّارِها كأنها ماشيةٌ مذعورةٌ، وغبارٌ رمليٌّ ناعمٌ عَلِقَ في الهواء، غلّف الرؤية فوق البحر وكأنه سحابةٌ خانقةٌ. خرقت الرياح السحب، ومسحت السماء، وجرفت رمال البلدة مثل الثلج.

عندما أتى المساء، تحدّث جوان توماس لأخيه: «أين ستذهب»؟

«إلى الشمال، سمعتُ أنَّ هناك مُدُنًا في الشمال».

«تجنّب الساحل، سوف يقومون بالبحث عنك بالقرب مِن الساحل بالتأكيد. وسوف يبحث تجَّار البلدة عنك. هل لا تزال اللؤلؤة في حوزتك»؟

«لا أزالُ أملكها. وسوف أحافظ عليها. ربما تكون قد أُعطيت لي كمنحةٍ أو هبةٍ. ولكنها الآن ثروتي وحياتي، وسوف أحافظ عليها».

كانت عيناهُ بهما عزيمةٌ وقوةٌ واضحةٌ. أَنَّ كويوتيتو، فهمستْ جوانا بالقليل مِن الكلمات والتراتيل؛ لتعيد له هدوءَهُ.

«الرياح جيدة الآن»، قال جوان توماس، «ستمحو الريح موضع أقدامك. لن يتمكَّن أحدٌ مَن أن يقتفي أثرك».

غادروا في الظلام قبل أن يصعد القمر إلى السماء. وقفت الأُسرة الصغيرة بهيئةٍ رسميةٍ في منزل جوان توماس.

حملت جوانا كويوتيتو على ظهرها، أحاطتْهُ بشال رأسها وهي تحمله. نام الرضيع، ووجنتُهُ مُسندةٌ إلى كتف جوانا. بينما حمتْ أنفها مِن هواء الليل البارد السام بأحد طرفَي الشال. حضن جوان توماس أخاه، وقبَّلَهُ على وجنتَيه.

«اذهبْ. ليحمك الرب».

وقد خرجتْ مِن الأخ الأكبر كما لو أنها وداعُ ما قبل الموت.

«لن تتخلى عن لؤلؤتك، أليس كذلك»؟

«هذه اللؤلؤة أصبحت الآن رُوحي»، قال كينو، «لو تخليتُ عنها، سأفقد رُوحي. فليحمك الرَّبُّ أنتَ أيضًا يا أخي».

(٦)

عصفت الريح، صرختْ بقوَّةٍ، وتقاذفتهما مع العصيِّ، الرمال، والصخور الصغيرة. لفّ كلٌّ مِن جوانا وكينو ملابسهما حول نفْسيهما بقوَّةٍ، وغطّيا أنفيهما، وذهبا إلى الخارج؛ ليواجها ذلك العالم! كانت السماء صافيةً بعد أن مسحتها الريح، والنجومُ بيضاءَ زاهيةً في سماءٍ سوداءَ. مشى الاثنان بحذرٍ، مُتجنبينِ مركز البلدة حيث يمكن لمستلقٍ أمام باب منزلٍ أن يراهما. كانت البلدة قد أغلقتْ أبوابها بقدوم الليل، واختفتْ منها الحياة. هذا يعني أنَّ أيَّ شخصٍ يسير في هذه العتمة سيكون مِن السهل ملاحظته. قطع كينو طريقه حول حافة البلدة، ثُمَّ اتجه شمالًا، مستدلًا على طريقه بالنجوم، فوجد طريقًا ضيِّقًا رمليًّا يأخذه إلى خارج القرية الدغلية تجاه «لوريتو».

شعر كينو عند كاحليه، بالرِّمال التي تحملها الرِّياحُ، وقد جعله ذلك سعيدًا؛ لأنه كان يعلم أن هذا يعني عدم بقاء آثارٍ لموضع أقدامهما. الضوء القليل الآتي مِن النجوم سهَّلَ عليه رؤية الطريق الضيِّق عبر القرية الدغلية. وقد كان في إمكان كينو سماع وقع قدمَي جوانا خلفه. ذهب بسرعةٍ وبهدوءٍ، وجوانا تهرول مُحاوِلَةً أن تلحق بِهِ.

بعض الأشياء القديمة ثارتْ في نفْس كينو. وفي خضَّم خوفه مِن الظلام، والشرور التي تأتي مع الليل، انتابتْ رُوْحَهُ دفعةٌ مِن البهجة؛ شيءٌ ما حيوانيٌّ تحرَّك داخله، وهو ما كان يجعله حذرًا، قلقًا، وخطيرًا؛ بعض الأشياء القديمة الآتية مِن ماضي قبيلته كانت لا تزالُ حيَّةً فيهِ. كانت الرياح في ظهره والنجوم ترشدُهُ. كانت الرِّياحُ تصرخ وتصدر صريرًا بمرورها بين الأجمة، والأُسرةُ تسيرُ بإيقاعٍ ثابتٍ رتيبٍ، ساعةً بعد ساعةٍ. لم يمرواْ على أيِّ شخصٍ، ولم يرواْ أيَّ شخصٍ. في النهاية، على يمينهم، كان قمرٌ منحصرٌ قد ارتفع، وعندما ظهر جليًّا، هدأت الرياح، وظهر الأفق أمامهما، بعد أن كادا يشعرانِ أنَّ الأرض قد غابت مِن حولهما، وأنهما يسيران في العدم.

الآن يمكنهم أن يروا الطريق الضيق أمامهم، غائرًا، يسمح بأن تظهر عليه آثار خطاهم بمجرد أن تتوقف الرياح، لكنهم الآن على مسافةٍ بعيدةٍ مِن البلدة، وربما لم يعدْ في الإمكان اتباع آثار أقدامهما أو ملاحظاتها. سار كينو بحرصٍ في الطريق، واتبعتْ جوانا المسار نفْسه. يكفي أن تمر عربةٌ مِن تلك التي يجرّها حصانٌ أو حمارٌ في هذا الطريق؛ لتمسح أيَّ آثارٍ لرحلتهما.

سارا طوال الليل، ولم يُغيِّرا مسارهما. استيقظ كويوتيتو مَرَّةً، فغيّرتْ جوانا موضعه حتى يكون أمامها، وأخذتْ تهمس له حتى هدأ ونام ثانيةً. كانت شرور الليل تحيطُ بهما. الذئاب تعوي في الدغل، والبوماتُ تهمس، وتُصدر هسيسها فوق رؤوسهما. ثُمَّ مَرَّةً واحدةً ظهر حيوانٌ ضخمٌ أمامهما، يبحث عن شيءٍ في الأرض. فأمسك كينو مقبض السكين الكبير مستمدًا منه الشعور بالحماية، لكنَّ الحيوان اختفى، ولم يعدْ للطريق مَرَّةً أُخرى.

سارا طوال الليل، ومع خيط الفجر الأول، بحث كينو على جانب الطريق عن أيِّ سقيفةٍ؛ ليستلقيا تحتها خلال النهار. وجد مكانًا قريبًا مِن الطريق، مسقوفًا بشكلٍ طبيعيٍّ بين الأشجار، ربما يكون قد استخدمه ظبيٌ في الاستظلال بعيدًا عن الشمس، وقد أحاط بالمكان سياجٌ نحيفةٌ مِن الأشجار الصغيرة الجافة والتي كانت تحفُّ الطريق. وعندما جلستْ جوانا، وبدأت في رعاية رضيعها، عاد كينو إلى الطريق مجددًا. كسر فرع شجرةٍ، وبحذرٍ مسح آثار الأقدام مِن حيث خرجوا عن الطريق تجاه مخبأهم. ثُمَّ، مع أول ضوءٍ، سمع صرير عربةٍ، فاتجه إلى جانب الطريق مُراقِبًا عربةً ثقيلةً ذات عجلتينِ تتحرك، مسحوبةً بثيرانٍ تسير متكاسلةً. وعندما ابتعدتْ، عاد إلى الطريق، ونظر إليه، فوجد أنَّ آثار أقدامهما قد طُمست. ومِن جديدٍ، مسح آثار قدميه بين الطريق ومخبئهما، وعاد إلى جوانا.

أعطتْهُ كعك الذرة التي حضّرتها أبولونيا مِن أجلهما، وبعد لحظاتٍ نامت قليلاً. لكن كينو ظلَّ جالسًا على الأرض مُحدِّقًا فيها أمامه. رأى

طابورًا مِن النمل يسيرُ، طابورًا ليس طويلاً للغاية بالقرب مِن قَدَمِهِ، وضع قدمه في طريقهم. فتسلَّقها الطابور وأكمل طريقَهُ، فترك كينو قَدَمَهُ مكانها، وظل يشاهدهم وهم يعبرونها.

أشرقت الشَّمسُ حارَّةً. لم يكونا قريبينِ مِن الخليج الآن، وهو ما يعني أنَّ الهواء جافٌّ وحارٌّ، وجعل هذا مخبأهما أكثر حرارة، وجعل الأشجار التي كانت تحفُّهُ، تصدر رائحةً راتينجيةً عطرةً. عندما استيقظتْ جوانا، بعد أن ارتفعت الشمس، أخبرها كينو بعض الأشياء التي كانت تعرفها بالفعل.

«كوني حذرةً مِن هذا النوع مِن الأشجار» قال كينو، وأشار.

«لا تلمسيها، إذا فعلتِ ذلك ثُمَّ لمستِ عينيكِ، ستصابينَ بالعمى. وكوني حذرةً مِن الأشجار التي تنزف. انظري، هناك واحدةٌ هناك. لو كسرتِ أحد فروعها، سترينَ دمًا أحمر يتدفَّقُ منها، وهذا فألٌ سيئٌ». أومأتْ برأسها، وابتسمت قليلاً له؛ لأنها كانت تعلم هذه الأشياء.

«هل سيتتبعونا»؟ سألته، «هل تظن أنهم سيحاولون أن يجدونا»؟

«سيحاولون» قال، «أيًّا ما كان الذي سيجدنا، سيأخذ اللؤلؤة. أوه، سيحاولون أخذها».

قالت جوانا: «ربما التجار على حقٍّ، واللؤلؤة ليس لها قيمةٌ. ربما كان كل هذا وهمًا».

أدخل كينو يَدَهُ في ملابسه، وأخرج اللؤلؤة. عرّضها للشمس تاركًا الضوء يلعب على سطحها حتى أوجعته عيناهُ. «لا»، قال، «لم يكونوا

سيحاولون سرقتها لو كانت عديمة القيمة».

«هل تعلم مَن هاجمنا؟ هل كان التجّار»؟

«لا أعلم»، قال، «لم أرهم».

نظر إلى لؤلؤته باحثًا عن رؤيته. «عندما نبيعُهَا في النهاية، سوف يكون لديَّ بندقيةٌ». قالها، ونظر إلى السطح اللامع باحثًا فيه عن صورة بندقيته، لكنه لم يرَ سوى جسدٍ أسود دامٍ على الأرض ودمٍ يلتمع يتدفَّقُ مِن عنقه. ثم قال بسرعة: «سنتزوج في كنيسةٍ كبيرةٍ». وفي اللؤلؤة رأى جوانا بوجهها المنهزم، تزحف إلى بيتها في الليل. «يجب أن يتعلم ولدنا القراءة». قالها بهيئةٍ محمومةٍ. وفي اللؤلؤة، رأى وجه كويوتيتو، مريضًا، محمومًا مِن الدواء.

أعاد كينو اللؤلؤة إلى داخل ملابسه، وموسيقى اللؤلؤة أصبحتْ أقلَّ في أذنيه، وتداخلتْ مع موسيقى الشَّرِّ.

ضربت الشَّمسُ الحارَّةُ الأرضَ، فتحرَّك كينو إلى الظل الخطي للأجمة، وطيورٌ صغيرةٌ رماديةٌ تزقزق وهي على الأرض في الظلِّ. في حرارة اليوم، استرخى كينو وغطّى عينيهِ بقُبَّعتِهِ، وَلَفَّ دثارَهُ حول وجهه؛ لِيُبعدَ البعوض عنه، ونام.

لكن جوانا لم تنمْ. جلستْ هادئةً كصخرةٍ، ووجهها كان هادئًا. فَمُهَا لايزال مُتورِّمًا مِن أثر ضربة كينو لها، وبعوضٌ ضخمٌ يأزُّ في تحليقه حول القطع في ذقنها. لكنها بدتْ وكأنها حارسٌ. وعندما استيقظ كويوتيتو وضعتْهُ على الأرض أمامها، وشاهدتْهُ يُحرِّك ذراعيهِ، ويركل بقدميهِ،

وابتسم، وغمغمَ حتى ابتسمتْ هي أيضًا. التقطتْ غُصنينِ مِن الأرض وكسرتهما، وأعطتْ كويوتيتو شربةَ ماءٍ مِن حافظة الماء التي كانت تحملها في صُرَّتِهَا.

ارتعش كينو في نومِهِ، وبدا ذلك أثرًا لحلم، صرخ عاليًا بصوتٍ متحشرجٍ، وتحرَّكتْ يَدُهُ كما لو أنه يقاتل أحدهم. ثُمَّ أَنَّ، وقام فجأةً، عيناهُ مفتوحتانِ على اتساعهما، وفتحتا أنفِهِ تنفثُ هواءً ملتهبًا. أنصتَ، ولم يسمعْ سوى طقطقةٍ مِن أثر الحرارة على السقيفة، وصوتٍ يأتي مِن بعيدٍ.

«ماذا هناك»؟ سألت جوانا.

«هُش» قال.

«كنتَ تحلم»؟

«رُبَّما». لكنَّهُ لم يكنْ مرتاحًا، وعندما أعطتْهُ كعكة الذرة مِن حافظتها، توقَّف عن المضغ محاولاً الإنصات. لم يكنْ مرتاحًا وقلقًا؛ أمسك سكِّينه الكبير، وتحسس نصلها. عندما غمغم كويوتيتو على الأرض، قال كينو: «هدِّئيه»!

«ما الأمر»؟ سألت جوانا.

«لا أعلم».

أنصتَ ثانيةً، كان هناك نظرةُ حيوانٍ في عينيهِ. وقف، ثم وبصمتٍ مُتحرِّكًا وهو منخفضٌ، شاقًّا طريقه عبر الأجمة تجاه الطريق. لكنَّهُ لم يصعدْ إلى الطريق، اختبأ وراء شجرةٍ شوكيةٍ، وأطلَّ مِن ورائها على

الطريق الذي كان قد أتى منه.

ثُمَّ رآهم آتينَ مِن بعيدٍ. تصلّب جسدُهُ، وسحب رأسَهُ لأسفل، وأخذ ينظر مِن وراء غصنٍ مائلٍ. مِن مسافةٍ، استطاع أن يرى ثلاثَ هيئاتٍ لرجالٍ، اثنان على الأقدام، والآخر على ظهر حصان. لكنَّهُ كان يعلم مَنْ هُمْ، ورعشة خوفٍ سرت عبر جسدِهِ كُلِّهِ. حتى مِن هذه المسافة استطاع أن يرى الاثنينِ الذين على أقدامهما يتحركانِ ببطءٍ، ينحنيان على الأرض. هنا، يتوقف أحدهما، وينظر إلى الأرض، بينما الآخر يلتحقُ بِهِ. لقد كانا مقتفيَيْ آثارٍ، يمكنهم أن يتتبعوا آثار خطوات أحد الغنم في طريقٍ جبليٍّ. كانا لديهما حساسية كلاب صيدٍ. هنا، هو وجوانا انحرفا عن الطريق، وهؤلاء الناس مِن السكَّان المحليين، هم صيادون، يمكنهم أن يتتبعوا، أن يقرأوا أبسط العلامات مثل قشةٍ مكسورةٍ، أو كومة ترابٍ بها شيءٌ مِن الاضطراب. خلفهما، على الحصان، كان هناك هيئةٌ سوداءُ لرَجُلٍ، أنفُهُ مُغطًّى بدثارٍ، وحول خاصرته هناك بندقيةٌ تلمع في الشمس.

بدأ كينو مُتصلِّبًا كما لو أنه فرعُ شجرةٍ يابسٌ. تنفَّسَ بأقلِ ما يستطيعُ، وعيناهُ تنظر إلى المكان الذي قد مسح فيه آثار أقدامهما. حتى هذا المسح يمكن أن يكون رسالةً إلى مقتفي الآثار. كان يعرف هؤلاء مقتفي الأثر المحليين. لو قلنا إن الحياة لعبةٌ، فهم مَن يديرون هذه اللعبة، يمكنهم صيد المرء، ويمكنهم ألا يفعلوا ذلك، ويمنحونه الحياة. كانا يبحثانِ، ويفتِّشانِ في الأرض، بينما الرجل فوق ظهر الحصان ينتظر.

همس مقتفي الأثر قليلاً. سحب كينو ببطءٍ سكِّينَهُ الكبير ممسكًا إيَّاه بيدِهِ مُستعدًا لما قد يحدث. علم ما يجب عليه فعلُهُ. لو وجد مقتفيَي الأثر

مكان الذي يبدو فيه مسح الآثار، لابُدَّ أن ينقضَّ على الرَّجُلِ الذي على ظهر الحصان؛ ليقتلَهُ سريعًا، ويأخذ البندقية. هذه هي فرصته الوحيدة. وكلما اقترب الثلاثة، كان كينو يأخذ حذره أكثر وأكثر. ولم يكنْ لديه سوى فتحةٍ صغيرةٍ للغاية مِن وراء الغصن المتدلي؛ ليرى منها الطريق.

عادتْ جوانا إلى مكان اختبائها، سمعتْ وقع خطوات الحصان، غمغم كويوتيتو. حملتْهُ مِن على الأرض بسرعةٍ، ووضعتْهُ تحت شالها، وأعطتْهُ ثديها، فسكتَ.

عندما اقترب مقتفيا الأثر، استطاع كينو أن يرى ساقيهما، وفقط ساقَي الحصان مِن وراء الغصن المائل. رأى أقدام الرجال في العتمة وملابسهم البيضاء الرثة، وسمع صوت جلد صنادلهما وخشخشة حركة الخيل. توقَّفَ مقتفيا الأثر عند موضعٍ مُسِحَتْ مِن عليه الآثارُ عن عمدٍ وفحصوه، وتوقَّف الرجل الذي على ظهر الحصان (الخيّال). رفع الحصان رأسه عكس اتجاه لجامه، حيث يشعر بألمٍ أسفل لسانِهِ مِن شَدِّ اللجام، وصهل مُتذمِّرًا. استدار الرجلان، وفحصا الحصان، خاصَّة أُذُنَيْهِ.

كتم كينو أنفاسه، وانحنى قليلًا، وعضلات ذراعيه وساقيه توتّرت، وخطٌّ مِن العَرَقِ تشكَّل فوق شفتِهِ العُليا. للحظةٍ طويلةٍ كان مقتفيا الأثر يتفحصان الطريق، يتحركان ببطءٍ، يدرسانِ مواضع الأرض أمامهم، ومِن ورائهم يسير الرجل على ظهر الحصان. يهرولُ مقتفو الأثر، يتوقفون، ينظرون إلى مواضع بعينها، ويكملون هرولةً. سوف يعودون، كان كينو يعلم ذلك. سيدورون حول المكان باحثينَ هنا وهناك، ويعودون في الحال أو متأخِرًا إلى الطريق الذي اتبعه.

تراجع إلى الوراء، لم يحاولْ هذه المرة محو الآثار على طريقِهِ. لم يكنْ يستطيعُ فعل ذلك؛ الكثير مِن العلامات الصغيرة هنا وهناك، الكثير مِن أعواد القش المتكسِّرة والأماكن التي بها آثار أقدامه، والصخور الصغيرة التي تحركتْ مِن مكانها. وامتلأ كينو بالرعب، الخوف حد الرغبة في الطيران. سوف يعثر مقتفيا الأثر على دَرْبِهِ، علم ذلك. ليس هناك مِن مهربٍ، عدا الطيران. انحرف عن الطريق، وذهب مُسرِعًا وفي صمتٍ إلى المكان الخفيِّ، حيث كانت جوانا. رفعتْ رأسها ناظرةً إليه في تساؤلٍ.

«مقتفو أثرٍ» قال «أتوا».

وظهرتْ على ملامحه إشارات العجْز وفقدان الأمل. اسودَّ وجهُهُ، وبدتْ عيناهُ حزينةً. «ربما عليّ أن أتركهم يأخذونني».

في لحظتها، وقفتْ جوانا على قدميها، ووضعتْ يَدَهَا على ذراعه: «لديك اللؤلؤة». همستْ له بصوتٍ أجشّ: «هل تعتقد أنهم سيتركونك حيًّا؛ لتقول إنهم سرقوها منك»؟

امتدتْ يَدُهُ بهزلٍ واضحٍ إلى حيث كانت اللؤلؤة مخبّئةً تحت ملابسه: «سوف يجدونها»، قالها بوهنٍ.

«تعالَ. تعال» قالت.

وعندما لم يردَّ عليها: «هل تظنَّ أنهم سيتركوننا أحياءً؟ هل تظنُّ أنهم سيتركون الرضيع على قيد الحياة»؟

استفزازها هذا أفاق عقله؛ زمَّ شفتيهِ، واشتعلتْ عيناهُ مِن جديدٍ: «تعاليْ، سوف نذهب إلى الجبال. ربما سيكون مِن الصعب عليهم اقتفاء

أثرنا في الجبال».

وبشيءٍ مِن الذُّعر، جمع حاجيَّاتِهِ، وحقائبَهُ، وكل ما كان معه في تلك الرحلة. حمل كينو صُرَّةً مِن المال في يدِهِ اليُسرى، بينما كان سكِّينه يتأرجح في يده اليُمنى. فرّقَ الأجمة؛ لكي تتمكن جوانا مِن العبور خلالها، وهرولا إلى الغرب، تجاه الجبال الصخرية. سارا مُسرعينِ عبر شجيراتٍ متشابكةٍ. كان الخوف لدرجة الرغبة في الطيران هربًا مِن ذلك المصير تملَّكهم، حتى أن كينو لم يحاول أن يطمس آثار أقدامهم، ركلهم للصخور أثناء هرولتهم، إبعاد الأغصان الجافة مِن على الأرض. الشمس كانت شديدة الحرارة، تضرب الأرض الجافة إلى حد أنَّ النباتات القليلة أصدرتْ طقطقةً، وكأنها احتجاجٌ على هذا اللهيب. أمامهم كانت الجبال الجرانيتية، مرتفعة تخترق السماء، وكينو يجري باحثًا عن مكانٍ مرتفعٍ، كما تفعل كل الحيوانات وهي تناضل عندما تشعر بالخطر.

كانت هذه الأرض جافَّةً، ممتلئةً بنباتات الصبار التي يمكنها أن تحتفظ بالمياه، وبأجمةٍ ذات جذورٍ عميقةٍ؛ لتتمكَّنَ مِن امتصاص أيِّ رطوبةٍ في أعماق التربة؛ ليمكنها النمو. وما كان تحت الأقدام، لم يكنْ تربةً، كان صخرةً متكسِّرةً، منقسمةً إلى مكعباتٍ صغيرةٍ وشرائحَ ضخمةٍ، ولكنْ لم يكنْ أيٌّ منهم يمكن أن يحتوي على مياهٍ. القليل مِن الأعشاب الجافَّة التي بدتْ حزينةً هي فقط ما تنمو بين الصخور، عشبٌ يبدو وكأنه أثرٌ لأمطارٍ قليلةٍ حدثتْ هنا لمرةٍ منذ أمدٍ بعيدٍ، وكأنه ألقى ببذورِهِ، ومات. ومجموعةٌ مِن العلجوم الأقرن تشاهد الأُسرة الصغيرة في مسيرها، فأدارتْ رؤوسها الدوَّارة التي تشبه التنانين. والأرانب البرية بين حينٍ وآخرَ تتقافز

متتبعةً له، لتتخفَّى وراء أقرب الصخور. الحرارة المستعرة التي تضرب هذه الصحراء، وأمامهم كانت الجبال الصخرية تبدو باردةً ومرحِّبةً في انتظارهم.

هرب كينو. علم كينو ماذا سيحدث. على مسافةٍ قريبةٍ مِن الطريق، مقتفيا الأثر سيكونانِ واعيينِ إلى أنهما فقدوا المسار، وسوف يعودانِ مِن جديدٍ، باحثينِ؛ ليقرروا في وقتٍ قليلٍ الطريق الذي سيسلكونه؛ ليجدا المكان الذي ارتاح فيه كينو وجوانا. ومِن هناك، سيكون الأمر أسهل بالنسبة لهم -هذه الصخور القليلة، الأوراق المتساقطة والأغصان التي أُزيحت، الأماكن التي ترك عليها آثار أقدامٍ انزلقتْ. كينو يمكنه أن يرى في عقلِهِ، كيف كانوا يتتبعان طريقَهُ، ويأنَّانِ عندما يجدان علامةً ما، وخلفهما، رَجُلٌ مظلمٌ، ونصفٌ لا مبالٍ، خيّالٌ لديه بندقيةٌ. يأتي عمله في النهاية، بعد أن ينتهيا مِن كُلِّ شيءٍ. أوه، موسيقى الشَّرِّ تصدح عاليًا في رأس كينو الآن، تدقُّ مع أنين الحرارة، ومع جفاف فحيح الحيّات. لم تكنْ دقاتٍ كبيرةً ومهيمنةً، لكنَّهَا كانت سامَّةً وسريَّةً، وضربات قلبه أعطتْهَا نغمةً وإيقاعًا خفيًّا.

بدأ الطريق في الاتجاه لأعلى، وأصبحت الصخورُ أكبرَ. لكنَّ كينو كان قد وضع مسافةً قليلةً بين أُسرته ومقتفيَي الأثر. الآن، مع أول مرتفعٍ ارتاح. تسلق صخرةً كبيرةً، ونظر إلى الخلف على القرية التي تلمع تحت وطأة الشمس، ولكنَّهُ لم يستطعْ أن يرى أعداءَهُ، ولا حتى الخيّال الطويل على حصانه يمر عبر الأجمة. جلستْ جوانا في ظل الصخرة الكبيرة. رفعتْ زجاجة مياهها على شفتَيْ كويوتيتو؛ وأخذ لسانه الجاف يشرب

الماء بنهم. نظرتْ إلى كينو عندما عاد، رأتْهُ يتفحَّص كعبيها، بها جرحٌ ومخدوشةٌ مِن الصخور والأجمة الشوكية، فغطتْهُمَا بسرعةٍ بتنورتها. ثم ناولتْهُ الزُّجاجةَ، ولكنَّهُ هزّ رأسَهُ رافضًا. كانت عيناها لامعتينِ في وجهها المتعَب. بلل كينو شفتيه الجافتينِ بلسانِهِ.

«جوانا، سوف أذهب، وسوف تختبئين. سوف أقودُهُم في الجبال، وعندما يمرُّون، سوف تتجهينَ شمالاً إلى لوريتو أو سانتا روساليا. ثُمَّ إنْ أمكنني الهرب منهم، سوف آتي إليكِ. إنها الطريقة الوحيدة الآمنة».

نظرت للحظةٍ في عينيهِ بإمعانٍ: «لا. سوف نذهب معك».

«يمكنني أن أذهب أسرع وأنا وحدي»، قالها مخفضًا صوتَهُ، «سوف تُعرِّضينَ الرضيع إلى المزيد مِن الخطر لو ذهبنا معًا».

«لا».

«يجب أن تفعلي ما أقوله. إنه الشيء الأكثر حكمةً. وهذه أمنيتي».

«لا».

بحث عن شيءٍ مِن الضعف في وجهِهَا، عن شيءٍ مِن الخوف، التردُّدِ، ولم يكنْ أيٌّ منهما هناك. كانت عيناها تلمعانِ. هزّ كتفيهِ بشيءٍ مِن العجز، ولكنَّهُ كان قد أخذ بعض القوَّة منها. عندما تحركا مُكملينِ دربهما، لم يعدْ داخلهما شيءٌ مِن الخوف والرعب الذي كان قد صاحبهما حتى الآن.

وكلما اتجها نحو الجبال، تغيَّرت طبيعة الأرض سريعًا، أصبحتْ أكثر حدَّةً، صخورها أكبر، والمشي فيها أكثر صعوبةً، وأخذ كينو يتحرَّك

بين حافَّةٍ وحافَّةٍ للصخور الضخمة. علم أنه أينما فقد مقتفو الأثر مساره، سوف يدورون ويفقدون بعض الوقت قبل أن يجدوه مِن جديدٍ. لذا لم يسرْ في طريقٍ مستقيمٍ، ولكنَّهُ سار في خطٍّ مُتعرِّجٍ، وأحيانًا كان يعود إلى الجنوب، ويترك علامةً، ثُمَّ يتجهُ إلى الجبال ذات الصخور العالية. والمسار يتجه صاعدًا مع كلِّ خطوةٍ، لذا كان يلهثُ مع كل حركةٍ قليلةٍ.

تحرَّكت الشمس إلى أسفل، تجاه أسنة الصخور العارية على قمم الجبال، فاتجه كينو صوب شقٍّ مُعتمٍ في سلسلة الجبال. إن كان هناك أيُّ ماءٍ، سوف يكون هذا على مرأى منه الآن، حتى ولو مِن مسافةٍ، سيكون هناك ولو أثرٌ لأوراق شجرٍ خضراء. ولو أنَّ هناك أيَّ طريقٍ عبر سلسلة الجبال هذه، سوف يكون بعمق الشق الجبلي الذي هم فيه الآن. إنَّ لهذا خطورةً واضحةً، بالنسبة لمقتفِيي الأثر، فإنهم سوف يُفكِّرون في نفس الاحتمال، ولكن زجاجة الماء الفارغة لم تسمحْ لهذا الأمر أن يؤثِّر على قرارهم. وبينما كانت تهبط الشمس، كافح كينو وجوانا بصعوبةٍ، وهما يصعدان المنحدر المائل تجاه الشق الجبلي.

وفي الموضع الذي تتجمَّعُ فيه المياهُ قبل أن تنهمر مِن ارتفاع مئة قدمٍ، وتختفي في الصحراء المقفرة، كان هناك درجٌ ورمالٌ. فقطْ خيطٌ رفيعٌ مِن الماء يتساقطُ فيما يُشْبِهُ بِركة مياهٍ صغيرةٍ، وقد كان هذا كافيًا لامتلاء هذه البِركة، وجذب حيوانات هذه الصحراء بجبالها للشرب منها، والحفاظ على خضرة بعض الأعشاب التي نَمَتْ حولها في هذا الشق الجبلي، وتطاولتْ كرمةُ عنبٍ برِّيَّةٍ على الصخور الجبلية، لقد كان هذا المكان، موضعًا مُريحًا لها حتى تنمو. وفي الموضع الذي كانت تمتلئُ فيه المياهُ

مُكوِّنةً ما يُشبِهُ البِركة، بدت الرمال التي كانتْ تُحيطُ بها وكأنها تُشْبِهُ الشَّاطئ، وعلى هذا الشاطئ، ظهرتْ آثارُ أقدامِ حيواناتٍ مختلفةٍ جاءت؛ لتشرب مِن هذا الموضع، وتصطاد فرائسها، ومِن حوله كانت خضرة النباتات تحيطُ بذلك كله.

مرّت الشمس فوق الجبال عندما كان كينو وجوانا يكافحانِ مِن أجل المنحدر، حتى وصولهم إلى موضع المياه. ومِن هذا المكان كان يمكنهم رؤية الشمس الآخذة في الأفول فوق الخليج الأزرق البعيد. لقد وصلوا مُتعبينِ للغاية إلى موضع بِركة الماء، استسلمتْ جوانا للجلوس على ركبتَيْها، وأول ما فعلتْهُ هو أنها غسلتْ وجه كويوتيتو، ثم ملأت زجاجتها، وأعطتْهُ شَرْبَةً. كان الرضيع مُنْهَكًا ومُتذمِّرًا، وبكى كثيرًا حتى أعطته جوانا ثديها، ثُمَّ قرقر وطقطق في نَهَمٍ. شرب كينو طويلًا وبعطشٍ مِن موضع الماء، وأرخى كل عضلاته، وراقب جوانا تطعم الرضيع، ثُمَّ وقف على قدميهِ، وذهب إلى حافة المنحدر حيث يسقط الماء مِن فوقه، وقاس المسافة جيِّدًا. ركّزتْ عيناهُ على نقطةٍ ما، وأصبح جسدُهُ أكثر تصلُّبًا. بعيدًا جدًّا، عن المنحدر، استطاع أن يرى مقتفيَي الأثر؛ كانا أكبر قليلًا مِن نقطتينِ أو نملتينِ مهرولتينِ وخلفهما نملةٌ أكبر، كان هذا هو الخيَّال.

أدرات جوانا رأسه؛ لتنظر إليه، ورأتْ ظهره مشدودًا.

«كم يبعدون»؟ سألته بهدوءٍ.

«سوف يكونون هنا بحلول المساء». قالها كينو، ونظر إلى أعلى، حيث الطريق الطويل الحاد الذي يأتي منه الماء. «يجب أن نذهب إلى

الجنوب»، قال. وبحثتْ عيناهُ عن ممرٍّ صخريٍّ خلف الصدع الذي كانا فيه. وعلى بعد ثلاثين قدمًا أعلى المكان الذي كانا فيها، كان هناك ممرٌّ، وبعده مجموعةٌ مِن الكهوف الصغيرة. خلع صندله، واستند بقدميهِ عليهما؛ ليصعد فوق الصخور العارية متشبِّثًا فيها بأصابعِهِ؛ لينظر إلى الكهوف. لقد كانت ذواتِ عمقٍ قليلٍ، وفراغاتٍ تمر بها الرياح وتصدح، لكنَّهَا تميل تجاه نهايتها. زحف كينو تجاه أكبرهم، واستلقى فيه، وعلم أنه لا يستطيع أن يُرى مِن الخارج. ثم عاد سريعًا إلى جوانا.

«يجب أن تذهبي إلى هناك في الأعلى. ربما لا يستطيعون أن يجدونا في ذلك المكان»، قال.

بدون أيِّ سؤالٍ، ملأتْ زجاجتها بالمياه حتى آخرها، ثُمَّ ساعدها كينو في الصعود إلى مكان الكهف، وجلب حاجيَّاتِهم، وما كانوا يحملونَهُ مِن طعامٍ، ثُمَّ مررَّهُ إليها. جلستْ جوانا داخل الكهف وهي تراقب كينو. رأتْهُ لا يحاول أن يمحو آثار مسارهم على الرمال. بدلاً مِن ذلك، تسلَّق أجمة الجرف بجانب الماء، ثُمَّ أخذ يُمزِّقُهَا ويتلفُ بعضًا منها أينما ذهب. وعندما وصل لما يبعد مائة قدمٍ عن مكانه، عاد مِن جديدٍ إلى كهفهما. نظر بحذرٍ إلى الممر الصخري الناعم تجاه الكهف؛ ليتأكد أن لا علامات على مسارهم، ثُمَّ أخيرًا تسلَّل إلى داخل الكهف جوار جوانا.

«عندما يصعدون، سنهبط نحن تجاه المنخفضات مَرَّةً أُخرى. أنا خائفٌ فقطْ مِن أنَّ الرضيع ربما يبكي. يجب أن تتأكدي مِن أنه لن يبكيَ».

«لن يبكيَ»، قالتْهَا، ورفعتْ وجه الرضيع إلى وجهها، ونظرتْ في

عينيهِ، وحدَّقَ فيها هو أيضًا.

«هو يعلم ذلك، لن يبكيَ»، قالت.

الآن، يستلقي كينو في مدخل الكهف، يسندُ ذقنَهُ إلى ذراعِهِ، ويراقب الظل الأزرق للجبل على الصحراء المتناثرة في أرجائها القليل مَن الأجمات حتى الخليج، والشفق الطويل الذي يمتد فوق الأرض.

احتاج مقتفو الأثر وقتًا طويلاً؛ لكي يتمكنوا مِن التعامل مع حِيَلِ كينو. وعندما وصلوا إلى البِركة الصغيرة، كان الغسق قد أتى. وكان الثلاثة يسيرون على أقدامهم؛ لأنَّ الحصان لا يستطيع تسلُّقَ مثل هذا المنحدر. مِن فوق، بدوا هيئاتٍ نحيفةً عالقةً في المساء. الرجل ذو البندقية يجلس ليرتاح. الاثنان الآخران متمددان بالقرب منه. وفي المساء، كانت رؤوس سجائرهم المشتعلة تلمع، ويظهر معها تآكل جسد السجائر نفْسها مِن أثر الاشتعال. كان كينو يستطيع أن يرى أنهم يأكلون، والهمس القليل لأصواتهم كان يصله.

كانت العتمة كاملةً، وعميقةً، وقاتمةً في الصدع الجبلي. الحيوانات التي اعتادت أن تشرب مِن البِركة أتتْ؛ لتقترب، وتشمَّمت الرجال، ثم ابتعدتْ مِن جديدٍ.

سمع صوت همهمةٍ خَلْفَهُ. كانت جوانا تهمس: «كويوتيتو». تحاول أن تجعله أهدأَ. سمع كينو أنين الرضيع، وعرف أنها تحاول التقليل مِن الصوت بتغطية رأس الرضيع بشالها.

في الأسفل، عند موضع المياه، كان عود كبريتٍ يُشعل، وفي ضوئِهِ

اللحظيِّ، رأى كينو الرَّجُلَينِ نائمينِ، مُتكوِّرَينِ على نفْسيهما كأنهما كلبانِ، بينما الثالث يشاهدهما، ورأى لمعان البندقية في ضوء الكبريت. ثم خَفَتَ الضَّوْءُ ومات، لكنَّهُ ترك صورةً للثلاثة رجال في عينَي كينو. كان يستطيعُ أن يرى، كيف كان حال كلِّ رَجُلٍ منهم، اثنان نائمانِ والثالث جالسٌ على الرمال مع بندقيَّتِهِ بين ركبتَيْهِ.

تحرك كينو في صمتٍ، عائدًا إلى داخل الكهف. كانت عينا جوانا تلمعانِ عاكسةً ضوءَ نجمةٍ ضئيلةٍ في هذا الليل. زحف كينو بهدوءٍ مُقتربًا منها، ووضع شفتَيْهِ بالقرب مِن وجنتها.

«هناك طريقة»، قال.

«لكنهم سيقتلونك».

«لو بدأتُ أولًا بصاحب البندقية؛ سأقضي عليه وتكون بندقيته في حوزتي، سأكون بخيرٍ. الاثنان الآخران نائمان».

أخرجتْ يَدَهَا مِن تحت شالها، وأحكمتْ قبضتها على ذراعه: «سوف يرون ملابسك البيضاء في ضوء النجوم».

«لا. ويجب أن أذهب قبل أن يرتفع القمر»، قال.

بحث عن كلماتٍ رقيقةٍ؛ لِيُخفِّف عنها: «لو قتلوني، ابقيْ هادئةً في مكانك. وعندما يذهبون مِن هنا، اتجهي إلى لوريتو».

اهتزتْ يَدُهَا قليلًا، وهي ممسكةٌ معصمه.

«ليس هناك خيارٌ آخرُ، هذه هي الطريقة الوحيدة، وإما سيجدوننا في الصباح».

اضطربَ صوتُهَا قليلًا: «اذهبْ، ليكن الرب معك»، قالت.

أمعن النظر عن قربٍ فيها، ورأى عينيها الواسعتينِ. تحسَّست يَدُهُ المكان، ووجدت الرضيعَ، وللحظةٍ استقرَّ كفُّهُ على رأس كويوتيتو. ثم رفع يَدَهُ ولمس وجنة جوانا، بينما هي تحبس أنفاسها.

كانت السماء تطلُّ عليهم مِن مدخل الكهف. استطاعتْ جوانا أن ترى كينو يخلع ملابسه البيضاء، المتسخة والرثة حتى لا تتسبب في كشفه في هذا الليل. بشرة جسده البنية ستكون حمايةً أفضلَ بالنسبة له. ثُمَّ رأتْهُ يخلع التميمة التي يضعُهَا حول رقبته، ويمسك بخيطها ويلفُّهُ على مقبض السكين الكبير، حتى يمكنه أن يُعلِّقَ السكِّين في معصمِهِ، وتصبح كلا يديهِ حُرَّة الحركة. لم يعدْ إليها. للحظةٍ كان جسدُهُ مُعْتِمًا في مدخل الكهف، صامتًا، ثم ذهب في طريقِهِ.

تحرَّكت جوانا تجاه مدخل الكهف، ونظرتْ للخارج. اقتربتْ كما لو أنها بومةٌ تطلُّ مِن إحدى فجوات الجبل، كان الرضيع نائمًا تحت دثارٍ على ظهرِهَا، ووجهُهُ مائلًا مُستنِدًا على رقبتها وكتفها. استطاعتْ أن تشعر بأنفاسه الدافئة على بشرتها، فهمستْ جوانا له بذلك المزيج مِن الصلوات والتراتيل السحرية، همستْ له بأُنشودة ماريا المقدسة تراتيل أجدادها القدماء؛ لتبعد عنه تلك الأشياء السوداء غير الإنسانية.

بدا الليل أقل عتمةً عندما نظرتْ إلى الخارج، ومِن ناحية الشرق كان

هناك ضوءٌ في السماء، وبالقرب حدَّ الأفق، كان القمر قد بدأ في الظهور. وبالنظر إلى أسفل، أمكنها أن ترى سيجارة الرَّجُلِ الذي كان جالسًا ليحرس النائمَينِ.

واقترب كينو شيئًا فشيئًا، مُتَّجِهًا لأسفل مثل السحلية البطيئة التي تتحرك على الممر الصخري الناعم. وفي صمتٍ، وبقدمَينِ عاريتَينِ، اقترب كينو أكثر وأكثر مُتشبِّثًا بأصابع قدميه في الصخور الناعمة في الممر الجبلي؛ حتى لا ينزلق أو يصدر أيَّ صوتٍ أو إشارةٍ تُوحي بشيءٍ لمقتفي الأثر، لكنَّ الليل لم يكنْ صامتًا تمامًا، كان هناك حفيف الأشجار التي تمر فيها الرياح، شيءٌ مِن تغريد العصافير، ونقيق الضفادع المتناثرة هنا وهناك. وكما كان الأمر دائمًا منذ وُجِدَتْ هذه اللؤلؤة، كانت موسيقى الأُسْرة تصدح في رأسه مختلطةً بموسيقى العدوِّ.

الآن، فقط عشرون قدمًا تفصلُهُ عن عدوِّهِ، وحاول أن يتذكر طبيعة الأرض في المنطقة التي بينهما تَحسُّبًا لأيِّ شيءٍ. هل هناك أيُّ صخرةٍ ربما تُعيقه أو تُعرقله؟ شدَّ ساقيه بقوَّةٍ؛ ليطرد عنها الشدَّ العضليَّ الذي أصاب عضلاتها مِن أثر تشبُّثِهِ القويِّ حتى لا ينزلق في الممر. ثم نظر إلى الشرق. كان القمر سيرتفع خلال لحظاتٍ قليلةٍ، ويجب أن يهاجم قبل أن يعلو في السماء. يستطيع أن يرى حدود جسد الحارس، ولكنَّ الرجلَينِ النَّائمَينِ لا يزالان تحت مستوى رؤيته. لقد كان الحارس هو ما يجب أن يجده كينو سريعًا وبدون تردُّدٍ. بصمتٍ، سحب خيط التميمة المربوطة في مقبض السكين؛ ليخرجه تاركًا إيَّاهُ متأرجحًا؛ حتى يكون جاهزًا حال احتاج إليه.

لقد كان قد تأخَّر كثيرًا الآن؛ لأنَّ ضوء القمر بدأ ينزلق مِن جهة الشرق؛ ليضيءَ حافة الجبل، فاضطر كينو أن يختبئَ وراء صخرةٍ مؤقتًا. بدا القمر قديمًا، ورثًّا، ولكنه رمى بضوءٍ قويٍّ، وظل قويًّا على المنحدر الجبلي، والآن كينو مِن الصعب أن يرى الحارس الجالس بالقرب مِن بِركة الماء. حدّق الحارس في القمر، ثُمَّ أشعل سيجارةً أُخرى، فأضاء عودُ الثقاب المشتعل وجهَهُ المعتمَ للحظةٍ. ليس هناك وقتٌ للانتظار الآن، عندما يدير الحارس رأسَهُ، يجب على كينو أن يقفز عليه. كانت ساقاهُ في هذا الوقت تعانيانِ مِن شَدٍّ عضليٍّ قويٍّ.

ثُمَّ أتى مِن أعلى صوتُ بكاءٍ مُتذمِّر. أدار الحارس رَأْسَهُ؛ لينصتَ، ثُمَّ وقف، وأحدُ النائمَينِ حدّقَ في الأرض، واستيقظ سائلاً بصوتٍ منخفضٍ: «ما هذا»؟

«لا أعلم، يبدو وكأنه صوتُ بكاءٍ، تقريبًا صوتُ بكاءٍ بشري، بكاءُ رضيعٍ»، قال الحارس.

الرجل الذي كان نائمًا منذ قليلٍ قال: «لا تستطيع أنْ تقول ذلك. ربما يكون عواءَ ذئبٍ بريٍّ صغيرٍ، أحيانًا ما يكون عواؤُهُم مثل بكاءِ رضيعٍ».

تساقطتْ قطراتُ العَرَقِ، وانهمرتْ مِن جبين كينو، وشعر أنَّها تحرق عينه. عاد البكاء مِن جديدٍ، ونظر الحارس إلى أعلى تجاه الكهف.

«ربما يكون ذئبًا»، قالها، وسمع كينو صوتَ تحضير البندقية للإطلاق.

«لو كان ذئبًا، ستوقفه هذه»، قالها الخيَّال، ورفع بندقيَّتَهُ تجاه الكهف.

كان كينو في منتصف قفزتِهِ في الهواء، عندما لمعت الماسورة الفضية

للبندقية أمام عينيه. تأرجحتْ سكِّينُهُ الكبير في الهواء وانغرستْ في اللحم عميقًا، بدا كينو كآلةِ قتلٍ مرعبةٍ. جذب البندقية دون حتى أن يُحرِّر السكِّين مِن يَدِهِ. قوتُهُ وحركتُهُ وسرعتُهُ كانت جميعها تنتمي لآلةٍ، وليس لإنسانٍ. تنقَّل بشكلٍ دائريٍّ وبسرعةٍ، وضرب رأس الرجل الجالس كما لو أنها بطيّخةٌ. أما الثالث فهرب مثل سرطان البحر، رمى نفْسه في بِركة الماء، ثم بدأ يتسلَّق في رعبٍ الناحية الأُخرى مِن المنحدر. تعلَّقتْ يداهُ وساقاهُ في كرمة عنبٍ بريٍّ، وقد أصابه الرعب، وأخذ يئنُّ وهو يحاول الهروب. لكنَّ كينو كان قد أصبح باردًا كما لو أنه كالفولاذ. حضّر البندقية للإطلاق، ثم رفعها، واستهدف عن عمدٍ، وأطلق. رأى عدوَّهُ يسقط في البحيرة، ثُمَّ خطا كينو مُسرِعًا تجاه المياه. في ضوء القمر رأى العينَينِ المرتعبتَينِ، واستهدف كينو ما بينهما، وأطلق النار.

ثم وقف كينو مُتشكِّكًا في شيءٍ ما. كان يشعر بأنَّ هناك شيئًا ما خطأ، إشارةٌ كانت تحاول النفاذ إلى وعيه. أوراق الشجر، الضفادع كانت كلها في صمتٍ. أخذت الأشياء تتضح في ذهن كينو شيئًا فشيئًا، بعيدًا عن كل هذا الدم، وعلم أنَّ هناك صوتًا ما -نواحًا، أنينًا، صراخًا هستيريًّا يأتي مِن الكهف الصغير في جانب الجبل الصخري، لقد كان نحيبَ وصراخَ الموتِ.

(٧)

كلُّ شخصٍ في لا باز يتذكَّرُ عودة الأُسرة، رُبَّما يكون هناك بعض الرجال الطاعنين في العمر الذين رأوا ذلك بأعينهم، ولكن هؤلاء الذين أُخبروا بالأمر مِن آبائهم وأجدادهم يتذكرون القصة جيِّدًا. لقد كان حدثًا في حياة الجميع.

كان هذا في نهاية فترة بعد الظهر بأشعة الشمس الذهبية، عندما هرول الأولاد الصغار بشكلٍ هستيريٍّ في البلد، ونشروا خبر أن كينو وجوانا عادا. وكلُّ شخصٍ هرول مِن مكانٍ ليراهما. كانت الشمس تُسْقِطُ أشعتها تجاه الجبال الغربية، والظلال على الأرض كانت طويلةً. وربما هذا ما ترك أثرًا عميقًا على الذين رأوهم في هذا المشهد.

أتى الاثنان مِن الطريق الزراعي الضيق، ولم يكونا يمشيانِ في خطٍّ رأسيٍّ؛ كينو في الأمام، وجوانا خلفه، كما هي العادة، ولكن كانا يسيرانِ جنبًا إلى جنبٍ. كانت الشمس خلفهما، وظلاَّهما طويلان، وبدا كلامهما

وكأنه يحمل برجًا مِن العتمة. كانت البندقية بين يدي كينو، وجوانا تحمل شالها فوق كتفها. وفيه كان هناك شيءٌ صغيرٌ ثقيلٌ. كان الشال مُلطَّخًا بالدم الجاف، وهذا الشيء الصغير كان يهتزُّ كلما تحرَّكتْ. كان وجهُهَا متصلبًا، وكأنه مصنوعٌ مِن الجِلْد، وبِهِ الكثير مِن التعب والضيق اللذين حاربتهما. وعيناها الواسعتانِ تُحدّقان أمامها وفي ذاتها في الوقت نفْسه. لقد كانتْ بعيدةً بأقصى ما يمكن مِن مسافة عن الجنة (الفردوس). كانت شفتا كينو رفيعتَينِ ومشدودتَينِ، وقال النَّاسُ إنه كان يحمل الكثير مِن الخوف فيهما، كان هذا يحمل دلالةً خطرةً كما لو أنها عاصفةٌ هوجاءُ. قال النَّاسُ إنهما يبدوانِ وكأنهما أتيا مِن تجربةٍ مؤلمةٍ؛ وإنهما مرا بالكثير مِن الألم وخرجا منه، وإنه يبدو وكأنَّ هناك سِحْرًا ما كان يحميهما. وهؤلاء الناس الذين تجمعوا ليروهما وهما عائدانِ وازدحموا حولهما، سمحوا لهما بأن يكملا مسيرهما دون أن يتحدثوا إلي أيٍّ منهما.

سار كينو وجوانا عبر المدينة، ولكنهما لم يشعرا أنها موجودةٌ حولهما. كانت أعينهما لا تنظر يمينًا ولا يسارًا، ولا إلى أعلى ولا إلى أسفل، ولكنهما كان يحدّقانِ أمامهما وفقط. تأخذهما ساقاهما كما لو أنهما دميتانِ، يحملانِ أعمدةً مِن الخوف الأسود على ظهريهما. وبينما كانا يسيرانِ عبر المدينة، ألقى الوسطاء التجاريون النظر عليهما مِن النوافذ، والخدم نظروا إليهما بعينٍ واحدةٍ مِن جانب البوّابات، والأمهات أدرن وجوههنَّ إلى أولادهن الصغار القابعين في تنانيرهن. وكينو وجوانا مشيا بخطواتٍ واسعةٍ عبر البلدة، وتجاه المنازل الدغلية، والجيران يبتعدون عن طريقهما ويتركونهما يكملان مسيرهما. رفع جوان توما يَدَهُ

في تحيَّةٍ، ولم يقلْ شيئًا تاركًا يَدَهُ في الهواء لحظةً مُتشكِّكًا فيما قد حدث.

في أُذُنَيْ كينو، كانت موسيقى الأُسْرة صارخةً وشعواءَ. لقد كان في حالةٍ يُرثى لها، وجاءتْ أغنيتُهُ هذه؛ لتصبحَ صرخةً ومعركةً. مروا على المربع المحترق، حيث كان بيتهما، دون أن ينظرا إليه. وأكملا مشيهما مُجهدَينِ. أبعدا الأجمة التي على الشاطئ، وكانت تحيل بينهما وبين البحر، ووقفا أمام الماء. ولم ينظرا لقارب كينو المثقوب.

عندما وصلا إلى حافة الماء، توقَّفا وحدَّقا في الأفق الممتد فوق الخليج. ألقى كينو البندقية على الأرض، وفتَّش بين ملابسِهِ، ثُمَّ أمسك باللؤلؤة العظيمة في يَدِهِ. نظر إلى سطحها الذي كان رماديًّا ومُتقرِّحًا. وجوهُ الشَّرِّ أطلّتْ منها في عينيهِ، ورأى ضوء الحريق. وفي سطح اللؤلؤة رأى العينَينِ المذعورتَينِ للرَّجُلِ في بِركة الماء. وفي سطح اللؤلؤة رأى كويوتيتو يرقدُ في الكهف الصغير، وقد استقَّرت الطلقة النارية في رأسِهِ. لقد كانت اللؤلؤة قبيحةً، ورماديَّةً، كما لو أنها ورمٌ خبيثٌ. وسمع كينو موسيقى اللؤلؤة، شريرةً ومُشوَّهةً. اهتزتْ يد كينو قليلاً، ثُمَّ استدار إلى جوانا ببطءٍ، مُقدِّمًا اللؤلؤة إليها. وقفتْ بجانبه، ولا تزالُ تحمل هذا الثقل الميِّت فوق كتفها. نظرتْ إلى اللؤلؤة في يَدِهِ للحظةٍ، ثُمَّ نظرتْ إلى عينَيْ كينو، وقالتْ بهدوءٍ: «لا. أنت».

جذب كينو ذراعه للخلف، وقذف اللؤلؤة بكلِّ قُوَّتِهِ. شاهدها كينو وجوانا وهي تذهب، تلمع في الهواء تحت أشعة الشمس. رأوا اضطرابًا قليلاً في الماء على مسافةٍ بعيدةٍ، ووقفا جنبًا إلى جنبٍ يشاهدانِ المكان لوقتٍ طويلٍ.

واستقرَّت اللؤلؤة في المياه الخضراء مِن أثر الطحالب المنتشرة، والتي أحاطت باللؤلؤة في القاع. ضوء سطحها كان أخضرَ وجميلاً. استقرَّتْ في القاع الرملي بين نباتات السرخس. في الأعلى، كان سطح الماء أخضرَ، وكالمرآة. واللؤلؤة مُستقرَّةٌ في قاع البحر. كان هناك سرطانٌ يتحرك في القاع هنا وهناك حول اللؤلؤة مثيرًا بعض الرمال. وحين هدأتْ هذه الرمال، كانت قد غطَّت اللؤلؤة حتى أخفتها.

أما موسيقى اللؤلؤة، فقد أخذتْ تتلاشى تدريجيًّا، حتى أصبحتْ مُجرَّدَ همسٍ، ثُمَّ توارتْ إلى الأبد.